البطران

سوالف الستينات

البطران سوالف الستينات

خالد بن سعد الشنفري (كاتب عُماني)

الطبعة العربية الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، مجمع المفلح التجاري(87)، ط1.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan.publish@gmail.com

www.alaanpublish.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN: 978-9923-13-465-8

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2022 /1 /143)

306

الشنفري، خالد سعد

البطران.. سوالف الستينات/ خالد الشنفري عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(144) ص

ر. إ: 143/ 1/ 2022

الواصفات: اليوميات/ / المذكرات الشخصية/ / السيرة الذاتية/ / سلطنة عمان

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

خالد بن سعد الشنفري

البطران

سوالف الستينات

ذاكرة مكان

إهداء

إلى كل من عاصر أحداث وسوالف هذه الذكريات.

إلى الرعاة الصغار، وإلى الهاربون بحرا، والعائدون برا وجوا.

إلى حماري البطران رفيق دربي في تلك المرحلة وبقرتي حجفوف التي منحتني حليبها واللعب معها.

إلى المقاييف المتعرجة والمغاصيص المتقاطعة والحواري الضيقة وسماواتها الواسعة.

إلى الفطرة والبساطة والطبيعة.

إلى كل الذكريات التي تعبق بداخلي وتأبى إلا أن تظهر للعلن.

إلى أبنائي الذين لم يعيشو تلك الحقبة وما بها من ذكريات غائبة عن الأذهان.

إلى أحفادي وأحفادهم، وإلى المستقبل ومن سيعيش فيه.

أقول لكم جميعا:

"هكذا كنا وهكذا عشنا وانطلقنا وناضلنا وكانت أيامنا كفاحا طويلا وصراعا مريرا، وها نحن هنا كنا وما زلنا، فألى أين تريدون الوصول؟ ".

الرّعاة الصّغار

في صباح أحد أيّام أواخر السّتّينات من القرن الماضي، ذهب سالم كعادته رفقة أبقاره إلى موقع تجمّعها على أطراف الحافّة. المكان الّذي اعتاد أهل المنطقة إرسال أبقارهم إليه نهاية كلّ موسم خريف وبداية موسم الصّرب. منذ الصّباح الباكر يسوقها الرّعاة إلى سهول صلالة باتّجاه المرتفعات الجبليّة؛ كي ترعى ما تبقّى من حشائش خريف ذلك العام ولم يصفرّ أو ييبس بعد، إلى أن ينتهي النّهار.

كان يوما مشمسا بدرجة حرارة معتدلة لم تتجاوز 25درجة مئوية. انقشع ضباب الخريف مخلّفًا نسمات الكوس المنعشة. وأتى أفضل الفصول؛ فصل حصاد الزّرع ومرعى الضّرع؛ الّذي تهدأ فيه أمواج بحر العرب بعد زمجرته طيلة الفترة الماضية، ويصبح معطاء يدرّ بالخيرات. بعد فترة من السّير، وصل سالم بقطيعه الصّغير إلى وجهته. لم يكن الوضع عاديًّا. كانت

هنالك جلبة كبيرة؛ هرج ومرج بين بعض كبار السّنّ أصحاب بقر وأحد الرّعّاة. بعد استفسار علم أنّ هذا الأخير طلب زيادة في الأجر. فاحتجّ ملّاك الأبقار على ذلك وانقسموا بين موافق ورافض لرفع الأجرة. بل أكثر من ذلك، هناك من رشّح العودة إلى المنزل بأبقاره. فاتّجه سالم نحو رفاقه؛ قريبه مسلّم وصديقهما مسعود للتّشاور معهما حول الأمر؛ علّهم يجيدون حلّا بالجزم؛ إمّا بالزّيادة وإمّا الرّفض. حينها اقترب منهم الرّاعي وسألهم إن كانوا يرغبون في أن يرعى أبقارهم؛ لكنّهم لم يجرؤوا على اتّخاذ قرار دون استشارة الأهل. حينها قاد قطيع من وافقوا ورحل باتّجاه المراعي، بينما جمع الرّفقة الثّلاثة أمتعتهم وهمّوا بالعودة إلى الدّيار مع من رجعوا. وفي الطّريق استوقفهم مسلّم متسائلا: «لماذا لا نرعى أبقارنا بأنفسنا؟ إنّ العمليّة سهلة. لا نحتاج إلى ذلك الجهد. نحاول أن لا نسوقها بعيدا، ولا نتّجه بها ناحية الهضاب الجبليّة. نكتفي بالوصول قرب المحطّة. ستكون فرصة لزيارة المحريقة. بل أكثر من ذلك سنجلب بعض الموجودات هناك؛ ممّا يأتون بها ويبيعونها في صلالة. مثلا؛ صناديق الرّصاص الحديديّة وأظرفها من المخلّفات العسكريّة. إنّها قيّمة، يمكن إعادة شحنها بالبارود لتطلق من جديد. بالإضافة إلى معدّات وأدوات أخرى مثل أدوات الحدادة والنّجارة». أجابه مسعود متحمّسا لما قاله: «رائع.. فكرة رائعة. ما زلتُ أذكر المسالك الّتي نستدلّ بها على المحطّة. قبل أشهر نزلتُ من الجبل إلى صلالة مع والدي، وقد رأيتها، بل دقّقت فيها».

وهكذا تحوّلت الفكرة إلى أمر حماسي يشعّ بالمغامرة والاستكشاف وجلب الخيرات. فحزموا أمرهم للذّهاب على الفور، دون أن يفكّروا في العواقب الّتي من الممكن أن تنجرّ وراء ذلك. جمعوا أبقارهم في الحال كقطيع واحد، وعدّوها، كانت في حدود الثّلاثين رأسا. اطمأنّوا للأمر أكثر. يعتبر عددها قليلا، ويمكن السّيطرة عليها ببساطة. كانوا في غاية النّشوة وهم يسوقونها بين مقاييف مزارع الحافّة باتّجاه المراعي؛ أخيرا سيشاهدون المحطّة والطّائرات عن قرب، منتشين بغنائم المحريقة. وأعظم ما في الأمر إحساسهم بأنّهم أصبحوا رجالا؛ سيثبتون للجميع بعد هذه الرّحلة أنّهم تجاوزوا مرحلة الطّفولة، ولم ينتقلوا إلى مرحلة الشّباب فقط؛ بل دخلوا الرّجولة من أوسع أبوابها. كانوا سعداء بما ستتداوله الألسن حول فعلهم المغوار. ولم يقدر سالم على إخفاء ما اعتلّه من فرحة؛ فقال: «سيصبح لدينا قصص وحكايات نرويها. بعد هذه المغامرة سنصبح ذوي شأن، نتكلّم إلى أقراننا كما يتحدّث الكبار في جلساتهم العصريّة وفي اللّيالي القمريّة أو حتّى النّجميّة. أيّ كان يكون، لكلّ وقت نوعيّته الخاصّة من السّرد. المهمّ سنقول كما يقولون؛ كنّا وفعلنا، آه يا زمان لو ترجع إلى وراء. هههه.. سنثير دهشتهم، سنشدّ انتباههم، ويتلهّفون لسماعنا كما كنّا ننصتُ نحن إلى ما يرويه الكبار مشدوهين وكأنّ الطّير على رؤوسنا. هه..».

بعد مدّة من السّير، اجتازوا المزارع المحيطة بالحافّة شمالا. نظروا إليها من بعيد؛ كانت على شكل هلال بديع. وتناقشوا طول الطّريق بخصوص ما

تدرّه من خيرات على المنطقة؛ فهي تعتبر حاضنتها الغذائيّة الّتي لا تقلّ أهمّيّة عمّا يزخّه جنوب بحر العرب. وظلّوا على تلك الحال إلى أن حلّوا بمنطقة الدّعن؛ بداية سهل صلالة، الممتدّ من طاقة شرقا إلى ريسوت غربا. حينئذ اقترح سالم: «الدّعن. يعتبر مرعى. بإمكاننا أن نكتفي ونرعى أبقارنا هنا». ردّ عليه مسعود: «ستزداد الحشائش كثافة كلّما تقدّمنا في السّهل ناحية الجبل. ونحن بالأساس نريد الوصول للمحطّة، فلنواصل السّير قدما». أيّده سالم مضيفا: «صحيح. أتعلمون؟ هذه أوّل مرّة آتي إلى الدّعن بدون رفقة الأهل وفي غير موسم الخريف».

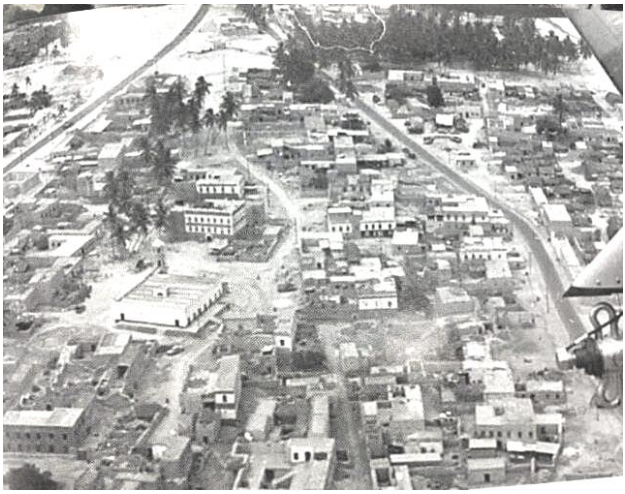

الحافة – محافظة ظفار – بداية السبعينات

لقد كانت عوائل الحافّة تأتي إلى الدّعن سيرا؛ لقربه من المناطق السّكنيّة، ولعدم وجود وسائل نقل. فلا يحتاجون إلى المبيت. يتنزّهون ويعودون في نفس اليوم. وعلى غرار ذلك كانوا يخيّمون لمدّة طويلة في منطقة «صفغ» امتداد ساقية عين صحلنوت؛ لحاجتهم إلى المياه العذبة والاستمتاع بالطّبيعة الخلّابة في آن. وكما يقولون: «صفغ الّي زينه ما حد يخليها». وكان سكّان المناطق الأخرى من صلالة يتّخذون مخيّمهم بسهل إيتين على امتداد عين جرزيز. ورغم أنّ الحكومة قد بدأت الأشغال لتسوير صلالة المدينة بطوق من الشّبك يفصلها تماما عن سهولها وجبالها من الدّهاريز شرقا إلى عوقد غربا. فلقد تنامت أنشطة الثوّار، وكان لا بدّ من حلّ. على غرار ذلك، لم يعد بإمكان المواطنين النّزول من الجبل إلى المدينة أو التّنقّل إلى الجبل؛ إلا عن طريق بوّابات سُمّيت بأرقام عسكريّة؛ بوّابة رقم 2 وبوّابة رقم 5. كان الهدف من ذلك قطع الإمدادات الغذائيّة الّتي كانت تصل إلى الثوّار. كان الوضع شديدا، يتعاملون معه بكلّ حسم. لم يكن يسمح للمواطنين بأن يأخذوا من مستلزماتهم إلا ما هو في حدود استهلاك العائلة، سواء من الشّاي والسّكّر، ولم يتركوا بين البحر والشّبك إلا ما لا يزيد على ثّلاثة كيلومترات، حصروا السّكّان داخلها في سجن كبير فغدا الشّبك وراءهم والبحر أمامهم. كان الوضع حقًّا مأساويًّا.

تقدّم الشّبّان الثّلاثة قاصدين هدفهم، دون حسبان لأيّ شبك ولا لأيّ أمر. الفكرة انتصبتْ، والهمّة اشتدّت؛ لن يثنيهم أيّ شيء. اجتاز سالم

منطقة الدّعن وهو يتباهى بما عاشه من ذكريات هناك. وعند مروره بإحدى الصّخور الضّخمة توقّف. نظر إليه صديقاه متعجّبين. اغرورقت عيناه، وقال: «استقرّت عائلتي هنا، على جنب منها في الخريف المنصرم». تذكّر إحدى عمّاته الّتي رافقتهم وأسرتها إلى هناك، قال: «هنا شَدَتْ. كان صوتها ينخر في الفؤاد. كانت تغنّي ألمًا؛ تبكي ابنها البكر بقصيدة. كم كانت مؤلمة! وكم بكينا». قاطعه مسلّم قائلا: «مات؟». ردّ مستنكرا: «لا. وحفظه الله. سُجن قبل أربع سنوات في جلالي مسقط بملاحظة؛ سيّئ السّمعة مع خمسين شابًّا من ظفار». عقّب عليه مسعود مستفسرا: «يا الله. كم سنّة؟»، فردّ بشجون: «تخيّل. لم يبلغ السّابعة عشرة بعد». ربّتا على كتفه، وحثّاه على السّير فتقدّم مدندنا ببعض الأبيات الّتي تذكّرها من قصيدة عمّته: «الدّعن خضر وقد زادت شجوني... الدّعن خضر وقد حرسه عساكر».

أخذ الدّعن يتوارى خلفهم شيئا فشيئا. كانوا يحثّون قطيعهم على السّير دون توقّف إلى أن تعمّقوا داخل السّهل. أصبح فسيحا؛ كلّما تقدّموا اتّسع أمامهم أكثر، وتوارت رؤوس نخيل نارجيل الحافّة الباسقات. وبعد دقائق من السّير اختفى كلّ ذلك تماما، ولا تفكير لهم يعلو على الوصول إلى المحطّة ومحريقتها. إلا أنّهم شعروا بالعطش؛ بل تيبّستْ الشّفاه. تحدّثوا بينهم بوجوب الصّبر؛ فمرامهم عزيز، كلّما ذكر أحدهم المحطّة والمحريقة تهلّلتْ الأسارير وهانتْ المصاعب. فجأة تراءتْ لهم مئذنة صغيرة أو – بالأحرى- بقاياها. صاح مسعود: «لقد تذكّرتُ المكان، مررنا بقربه أنا

ووالدي؛ إنّه مسجد قبر الشّيخ أحمد. قد يكون هناك بئر ماء». أسرع الجميع ناحيتها علّهم يرتوون. في الأثناء اختلج قلب سالم، وخفق بقوّة. سمع الكثير عن هذا القبر. يربط ذاكرته مباشرة بالرّعب الّذي تدسّه رقصة الزّنوج في داخله. فلقد كان الرّاقصون يزورون القبر في الصّباح الباكر في وقت معيّن من كلّ عام، ويحتفلون بمناسبة محدّدة لهم يعلمونها ويجهلها. يرقصون رقصتهم الشّهيرة «رقصة الزّنوج» رجزا بالسّيوف والرّماح والخناجر. كان كلّ واحد منهم يربط حزاما في وسطه، ويضع في ساقيه أساور مصنوعة من بذور شجرة الخشخاش اليابس؛ تلك الّتي تشبه بذرة المانجو الصّغيرة. فتصدر أصوات خشخشة عالية رهيبة بقوّة كلّ حركة على حسب قرع الطّبل ودويّ الدّفّ. ولقد كان برفقتهم طبول متعدّدة ومتنوّعة؛ بعضها طويل يجرّها الطّبّال جرًّا خلفه. كانت تلك الجلبة لا تخلو من صرخاتهم بين الفينة والأخرى؛ فتدوّي إلى أبعد مدى، وتُسمَع على بعد أميال.

كان الوضع –ككلّ– مؤزّمًا بالنّسبة لسالم. وما يزيده رهبة أنّهم كانوا يصبغون وجوههم بأشكال وألوان تبثّ الرّعب في قلوب الأطفال الصّغار. وليتهم اكتفوا بذلك؛ كانوا يرتدون خلقا مصبوغة بالنّيلة كي تبدو بالية، وتضفي سوادا على كلّ شيء. وطوال مسيرتهم الصّاخبة، يقوم بعضهم بالكرّ والفرّ في اتّجاهات مختلفة؛ وكأنّهم يشنّون غزوات سريعة لبثّ الرّعب في قلوب من يعترض طريقهم. وإن كان ذلك مبتغاهم حقّا؛ فإنّهم نجحوا في

النّيل خاصّة من كلّ الصّغار. كانوا يحملونهم بين أيديهم، ثمّ يرفعونهم عاليا، ولا يتركونهم إلا وقد بدؤوا بالصّراخ. وليس سالم بالغريب عن بقيّة الأطفال. فقد تمكّنوا منه خير تمكّن. كان يدعو الله أن لا تأتي اللّحظة الّتي يمرّ بها حشدهم من أمام بيتهم. ذلك أنّ منزله يقع على مدخل الحافّة، وفي كلّ عام يمرّون من هناك. يرعبونه، وتظلّ أشباحهم وحركاتهم وتفاصيل عديدة تلاحقه طيلة سنة بأكملها. ثمّ لا شكّ أنّ لتلك الجلبة كلّها مغزى وهدفا، لم يعد حتّى هؤلاء الرّاقصون يعرفونه، توارثوه من الأجداد لا غير، وصار ما يؤدّونه من رعب اعتزازا واعتقادا مسلّما؛ ربّما يجلب الحظّ. وفي كلّ محاولة هروب فاشلة من سالم؛ حتّى لا يتمكّن من رؤيتهم ما إن يسمع جلبتهم من بعيد، كان والده يمنعه ويمسكه لمشاهدة ذلك غصبا. كان يشرح له أهمّيتها؛ فهي تمثّل معاني وموروثات لصيقة بالإنسان نقلها أسلاف هؤلاء الرّاقصين ذوي الأصول الإفريقيّة إلى هنا، وغدت عادات وطقوس لأمم وحضارات امتزجت وتفاعلت بمرور الأزمان؛ لينتج عنها فنون مختلطة منها الزنوج، الرّبوبة والمدار. قال له أيضا إنّ مؤلّف كتاب البلاد السّعيدة أشار إلى ذلك حين زار ظفار قبل أكثر من مائة عام. ولعدّة أسباب لم تقنع سالم إلى يومه هذا، صارت رقصة ظفاريّة عمانيّة؛ تحمل عمقا تاريخيًّا للثّقافات، وامتزاجًا للحضارات. تذكّر سالم كلّ ذلك بامتعاض وخفقات قلب متسارعة، فرغم ما ذكره أبوه من وجوب تقبّل الوضع

والاعتزاز به؛ إلا أنّ تلك الرّقصة قد ارتبطت بإحساس يجلب المساوئ. وقد ترسّخ ذلك أكثر في ذهنه عندما وجدوا بئر المسجد مطمورة ولا وجود لأيّ ماء. تأفَّفَ، وشتم نحس الخوف الّذي يأتون به لمجرّد تذكّرهم.

واصلوا السّير خلف قطيعهم؛ إلى أن بدأت ملامح الورشة البيضاء الكبيرة للمحطّة تكبر شيئًا فشيئًا، وتزداد ضخامة كلّما اقتربوا منها أكثر. وعندما وصلوا إلى هدفهم، تفاجؤوا بأنّها محاطة بسور حديديّ ولا أثر للمحريقة. حاولوا إيجاد مدخل؛ علّهم يجدون ماء للشّرب بالدّاخل، لكنّهم لم يجدوا إلى ذلك سبيلا. أنهكهم العطش، وبدأت مغامرتهم المشوّقة تتحوّل إلى خيبة ومأساة. حاولوا تهدئة روعهم، وقرّروا المكوث قليلا كي يشبعوا فضولهم المعرفي على الأقلّ. لربّما يتمكّنون من رؤية طائرة بحجمها الطّبيعي عند إقلاعها أو هبوطها، ثمّ يأخذون قسطا من الرّاحة وهم يتأمّلون منظر المحطّة. بعد فترة من الزّمن، وبعد نقاش مطوّل وتحليلات عدّة اكتشفوا أنّهم لم يصلوا إلى وجهتهم بعد.

قال مسعود: «أرفع راية الاستسلام. لن أقوم بدور الدّليل ثانية فلقد كنت دليلا فاشلا، خانتني ذاكرتي. كلّ الأماكن تتشابه، كلّها سهول، كلّها خضراء، الصّخور تشابهت. لا حيلة لديّ غير أن أتقدّمكما بالأمام لأستكشف المكان قبلكما». شكراه على ما أبداه من شجاعة قائلين بتداخل: «ما قصّرت أبدا. اقتربنا مؤكّد من الماء والمحطّة والمحريقة، تمام، لك ما

شئت، تقدّمنا إن شئت لكن بشرط؛ لا تغب عن أنظارنا أبدا». ابتسم معتزّا بما قالاه، واقتطع قطعة قماش من مقدّمة وزاره. استغربا ممّا فعله. فقال مسلّم بدهشة: «ماذا تنوي أن تفعل؟»، عصّبها على رأسه، وقال: «الرّبط على الرّأس بشدّة يجعلك خفيفا وقت المشي». هزّ سالم رأسه يؤيّده؛ بينما ردّ عليه مسلّم ساخرا: «هل تريد أن أقتطع لك قطعة من وزاري كي تربطها على بطنك؟ هه... عسى أن تخفّف شعورك بالجوع أيضا». ابتسم مسعود قائلا: «الجوع آخر همّي الآن، ثمّ إنّي متعوّد على عدم الأكل لأكثر من يوم؛ شريطة أن يكون الماء موجودا، وأحيانا لا أشرب إلا الحليب. هذا أمر طبيعيّ بالنّسبة إلينا نحن رعّاة الجبل على غراركم أنتم أهل المدينة. كثرة الخيارات وتوفّرها لا تسمح لكم بتجربة ذلك. سأحلّ لكما أمر العطش والجوع معا».

اتّجه نحو إحدى أبقار قطيعه، ناداها بإسم حجفوف، كلّمها بلطف وكأنّها تفهمه. ثمّ أخذ بالضّغط على ضرعها بيده اليمنى، متلقّيا بيده اليسرى ما تدرّه من حليب، ويترشّفه متلذّذا. بعد أن سدّ رمقه جيّدا أفسح لهما المجال قائلا: «إنّها حجفوف المدرارة، وديعة وكريمة. تقدّما، لبنها يكفي لإرواء ثلاثة أشخاص».

المحطة RF في صلالة في الستينات

شربوا إلى أن ارتووا، وأصابهم خمول الشّبع. فقرّروا أن يتريّثوا قليلا قبل أن يواصلوا سيرهم. استلقى مسلّم على الأرض ليأخذ غفوة. وجلس سالم يراقب قطيعه تارة ومسعود تارة أخرى مندهشا من ذكائه في التّعامل مع هذه الحيوانات. ووصل به الأمر إلى المحطّة مجدّدا، وكيف تمّ تأسيسها. سرح بذهنه مستعيدا ما سمعه عنها. كانت تعتبر أهمّ حدث مرّ بظفار خلال النّصف الأوّل من هذا القرن. منذ بداية تنفيذها، استفاد العشرات من أبناء صلالة؛ عملوا في تنفيذ مشروعها، ويُقال إنّه لم يبق حمار في صلالة إلا استُؤجِر، وَسِيق للعمل به. جلب ذلك بعض السّيولة النّقديّة للكثيرين في وقت كان لا يزال تداول السّلع فيه بالمقايضة على غرار العصور الوسطى. تذكّر جمعان ديوان؛ شاعر الغناء في ظفار. قال في إنشائها أحلى قصيدة،

حفظها الصّغار والكبار، من شهد الحدث ومن لم يحضره. ردّد سالم بصوت عالٍ:

ساوينا محطّة في جرزيز
جميع النّاس فيها محتارة
بامشي محبي في موتر
يا صانع صنع لي طيارة
على ساعة تودينا باريس
هناك أرض مسلمين ونصارى
نسافر على جاه المولى
إن شاء الله نجيكم سفارة

ثمّ سكت للحظة، وقهقه مردّدا: «سبحان الله». تذكّر كيف ندّد جمعان ديوان بطيّارة إلى أن وقع حادث حريق كبير، التهم حيّه بأكمله. ساهم في إطفائه فرق المحطّة من الإنجليز، وكانوا لأوّل مرّة يخرجون خارج أساوارها لخطورة وقرب الحريق من القصر. أتوا بطائرتهم، ورآها الشّاعر؛ سمع دويّها، وشاهدها تحطّ وتسوّي عصارة. كانت الأسباب ليرى ذلك بأمّ عينيه. فأنشد بعد ذلك قصيدة جديدة؛ تقول:

جمعان يتذمر شبابه
النار حرقت له ثيابه
بعد المصرات والقمصان

ما بقى له إلا سبوعيه
أهل المحطة وأهل الفوج
شحنوا المواتر شحنة الدوج
الحمد لله سلم راسي
على المال ماشي حسوفيه

كان سالم قد شاهد تلك الحادثة في صغره. ورغم ذلك لم يبرح مخيّلته شيء ممّا كان، لم ينسَ أبيات الشّعر وكلّ الحكايات الّتي دارت حوله، ولا منظر سيّارات ومعدّات الإطفاء، ولا هول ذلك الحريق؛ لم يكن كحرائق بيوت العريش الّتي تكثر في الشّتاء، والّتي كانوا متعوّدين عليها، يتصدّى لها المواطنون بأيديهم العارية دون خوف مستعملين دلاء ماء بسيطة دون اللّجوء إلى فرق مطافي المحطة. رسَخ كلّ ذلك في مخيّلته، ولا يدري لمَ تذكّره وكأنّه مشهد حيّ أمامه.

لم يظهر مسعود لأكثر من ساعة. لم يريا طيفه لا هنا ولا هناك، ولم يشاهدا ظلّه حتّى. ولوهلة تحوّلت النّكت إلى لقطات رعب. وازداد هاجس الخوف لديهما عندما ناديا عليه ولم يردّ. فزعا، وهرولا بحثا عنه في الجهة الخلفيّة للمحطّة. وكانت الصّدمة الحقيقيّة. صرخ سالم: «سمادة... سمادة».

في الحقيقة لم تكن محريقة المحطّة سوى سمادة عملاقة تُشبه تلك الّتي تكمن خلف أحياء وبيوت صلالة. غير أنّ الأخيرة لا يوجد بها شيء يصلح

لإعادة التّدوير أو الاستعمال مجدّدا، كلّها علب الصّلصة الخاوية وعلب حليب «أبوقوس» للشاي الفارغة وتنك «سليط» زيت السمسم. بينما الأولى هي أيضا مردم نفايات ضخم؛ لكن لكلّ ما هو قابل للرّسكلة* وإعادة استغلاله من جديد. تقدّم سالم ودقّق النّظر؛ ثمّ قال بصوت عالٍ: «انظر، هذه السّمادة أيضا لا تخلو من مخلّفات الطّعام. بواقي قطع الخبز».

ردّ مسلّم: «اممم... خبز الرّوتي كما يسمّونه الهنود».

أضاف عليه سالم مؤيّدا: «صحيح، يقول الإنجليز عنه؛ التّوست. وهو خبزهم؛ فأفضّل تسميته التّوست».

- كم أودّ تذوّقه. ترى هل يختلف عن متاعنا؟
- عن نفسي قد ذقت طعمه فيما سبق، حقيقة، لذيذ. كان بعض العاملين في المحطّة يحضرونه، ويوزّعونه على جيرانهم. الصّراحة طعمه رائع. خصوصا عند غمسه بشاي حليب أبوقوس كما يفعلون، وحتّى بدون شيء؛ فهو لذيذ تفوح منه رائحة الخميرة الفوّاحة. ألا يكفي أنّه مصنوع من دقيق البرّ الإنجليزي؟ ههه؛ كان يستورد مباشرة من بريطانيا. ثمّ إنّ صلاحيّته تظلّ لعدّة أيّام دون أن يفسد.

* مأخوذة في كلمة (Recycle) الإنجليزية، وتعني إعادة التدوير.

- هنيئا مريئا لك، قد أذوقه يوما ما، لكن غريب أنّ كلّ أهل صلالة ينادونه بالرّوتي وليس بالتّوست رغم أنّ الإنجليز من أحضره إلينا. أليس عجيبا أن نتناقل التّسمية الهنديّة؟
- بلى، يبدو السّبب أنّ كلّ طبّاخي المحطّة كانوا هنودا وعن طريقهم يتسرب إلى الموظفين الظفاريين بالمحطة.
- أتعلم؟ ليتني لم أردم مخطوطتي بعد. كنت أضفتُ الكثير على ما كتبته، هناك الكثير يجب تدوينه.
- ههه.. عدنا للهذيان من جديد. أراك في دورِ الرّاعي أفضل من دور المؤرّخ. ههه... ثمّ ماذا تريد أن تدوّن؟

تجاهل سالم استهزاءات مسلّم، وردّ بكلّ جدّيّة: «قال لي جدّي إنّ معظم المسمّيات الحديثة الّتي نستخدمها الآن دخيلة علينا، لم تكن موجودة في لهجتنا، تناقلها موظّفو وعاملو المحطّة المحلّيين فيما بينهم بأسلوبهم ونطقهم الخاصّ، ثمّ نقلوها إلى المجتمع خارج أسوارها».

اهتمّ مسلّم بما يقوله، وتساءل في ذهول، يحاول عصف ذهنه: «مثل ماذا؟ ظننتُ أنّ كلّ الكلام كلامنا».

الهبوت في محافظة ظفار

ضحك سالم، وأجابه مؤيّدا فكرته: «بلى، كلّ الكلام كلامنا طبعا. لكنّهم أخذوا بعض المرادفات وحوّروها بطريقتهم ودمجوها في الكلام. مثلا؛ أيّام زمان لم يكن أهلنا يعرفون الخزائن؛ فقد كانوا يستخدمون صناديق أو ما يُعرف بالمندوس كي يجمّعوا فيها أغراضهم. ثمّ عندما أتى الإنجليز بثقافة الدّولاب، وأدخلوه البلد، كانوا يطلقون عليه «كابورد» فتحوّل بضغط اللّهجة إلى كبت».

صفّق مسلّم متحمّسا ومستهزئا: «عظيم. ما أجمل اختراعات أجدادنا. لم يخطر على بالي أبدا هذا الأمر. ماذا أخبرك جدّك أيضا؟ تشوّقتُ إلى معرفة بقيّة الكلمات. ما هي يا ترى؟».

شعر سالم بأهمّيّة ما يقول؛ ضحك بسعادة وأردف: «وهكذا دواليك بالنّسبة لأجزاء السّيّارات. بدلا من الكشّاف؛ لايت. العجلة؛ تاير. المقود؛ ستيرنج. الدّوّاسة؛ بريك».

– الله، ماذا أيضا؟

– صراحة ينطبق على مسمّيات أخرى كثيرة كالمستشفى؛ سبيتال. السّوق؛ ماركيت. وهكذا..

أعجب مسلّم بما قاله صديقه، لم يخمّن ذلك البتّة، لم يتوقّع مسبقا أنّ كلّ هاته الكلمات مستنبطة من المعجم الإنجليزي. فأراد أن يعصف ذهنه هو بدوره فقال: «أتعلم؟ يبدو أنّ أجدادنا لم يكن همّهم التّعلّم؛ بل حاولوا التّماشي مع الوضع لا غير. تأقلموا وحافظوا على التّراث، هذا كلّ ما في الأمر. أقصد أنّهم لم ينبهروا بالثّقافة الغربيّة، ولم يكن همّهم تلوين ألسنتهم بكلامهم أو لبسهم أو عاداتهم كما فعلت بقيّة الدّول العربية. خبز الصّمول سمّوه الخبز الطّويل، وخبز البرجر الأمريكي قالوا عنه خبز مدوّر أو دوّارة. على عكس إخواننا العرب بمصر والشّام ولبنان والمغرب العربي، قد يكون السّبب أنّنا لم نتعرّف على الفرنسيّين.

ردّ عليه سالم: «صح. جميل أنّهم وجدوا أسماء عربيّة لهم؛ بينما هناك أشياء احتفظوا بمسمّياتها. مثلا السّندويتش نقلوه كما هو حرفيّا؛ رغم وجود معاجم لغويّة تقوم بالغرض وزيادة. كان من الممكن أن يقولوا عنه ما لم يقله مالك في الخمر؛ كشاطر ومشطور وما بين المشطورين. لكن على ما

يبدو أنّ تعريبه لم يستسغه أحد. تجاوزوا ذلك، واكتفوا بالكلمة الأصليّة سندويتش».

ضحك مسلّم قائلا: «الأمور تسير بكيفهم، ما يروق تفكيرهم يعتمدونه معرّبا، وما لا يتماشى مع مخيّلتهم يحتفظون به كما هو. ههه.. الكوفي شوب مثلا، عرّبوه إلى كلمة مقهى».

أضفى سالم مستهزئا: «والمقهى كلمة مشتقّة من ماء وقهوة. أدمجوهما فكانت مقهى. ههه.. عباقرة».

نهره مسلّم قائلا: «لا تستهزأ بقدرات أجدادك، نعم عباقرة؛ ولكن بكيفهم؛ فالكافتيريا عرّبوها لفترة باستعمال ثلاث كلمات؛ ترجمة حرفيّة، وقالوا عنها منطقة الشّاي والقهوة. لكن سرعان ما هجرها النّاس لطول نطقها، وأبقوا على مسمّاها الأصلي كافتيريا».

قهقه سالم؛ ثمّ أكمل استهزاءه: «لا حقيقة اجتهدوا. أمّا رجال المحطّة الظّفاريّين فكانوا أكثر اجتهادا وجرأة، أتعلم ماذا فعلوا؟».

بدا على مسلّم الاهتمام، وحبّ المعرفة؛ فقال بلهفة: «لا، ماذا فعلوا؟».

ردّ عليه ساخرا: «صراحة كانوا جريئين؛ اختزلوا كلمة كابرد من خمسة حروف إلى ثلاثة فقط. حوّلوها من كابرد إلى كبت».

انفجر بالضّحك، بينما طالعه مسلّم بنظرة ملل، وعاتبه: «العيب ليس فيك. العيب في من هو واقف يُصغي إليك بكلّ جوارحه. اتركنا من خيالك وفلسفتك، أين مسعود يا ترى؟ لا يبدو أنّه هنا».

فزع الشّابان خوفا من أن يكون قد أصاب صديقهما مكروه أو أن يكون قد رحل عنهما ولم ينتبها؛ من سيكون قائدهما في طريق الرّجعة. أسرعا نحو الجهة الخلفيّة لكدس السّمادة، وهما يصرخان باسمه. وإذا به يضع شيئا يشبه الخوذة على رأسه. عُرف سبب غيابه وعدم الاستجابة لندائهما وبطل العجب. المكان يعجّ بالغنائم الّتي يمكن استعمالها من جديد.

انتشر الرّعاة الصّغار الثّلاثة في المحريقة كانتشار النّار في الهشيم؛ كلّ يختار ويجمّع حصيلته ممّا وجد. بعد فترة لا بأس بها من الغياب عن بعضهم البعض. صفّر مسعود بصوت يشبه الصّياح، وسرعان ما كانوا عند نقطة الاجتماع الّتي اتّفقوا عليها قبل الانطلاق. قاس كلّ منهم حجم ومقدار ما جمّع، وتساءلوا كيف بإمكانهم نقل كلّ هذه الحمولة طول الطّريق إلى صلالة خصوصا أنّهم حافيو الأقدام. قال مسعود: «وجوب الفرز، لا نحمل إلا ما خفّ وزنه وزادت قيمته». مهمه البقيّة، وكانا يحاولان أن يعترضا عمّا اقترحه فاستدرك بسرعة: «اليوم، نكتفي بمعرفة الطّريق واكتشاف المحطّة. أليس هذا بإنجاز؟ أصبح مكانها معلوما الآن. سنعود في الغد على الحمير، وقد أخذنا حيطتنا من زادٍ. نعود على مهلنا دون أن نخشى ضياعا أو غياب شمس وظلام». شعر سالم بالحزن، ترك ما بيده باستسلام وخاطبه بنبرة انهزام وأسى: «قد يكون ما نحمله شفيعا لنا عند الأهل، لن يتركونا نعود البتّة إلى هنا من جديد. آه، ردّة فعلهم لن تسرّنا أبدا بعد أن يعلموا بما قمنا به. عن نفسي لن يكون الوضع عاديّا عند أهلي. قد لا

يُحاسبُكَ أحد يا مسعود لأنّك بالأساس بعيد عن أهلك وتعتمد على نفسك وتشتغل مع العم أحمد بالمزرعة، لكن أنا لن يكون الوضع عاديًّا. أنا جازفتُ بما سألقاه من عُقوبات مقابل هذه الخردة والآن تقول لي أتركها؟ أريدها، قد تعودان هنا ثانية؛ لكنّهم لن يسمحوا لي ولن أقدر على عصيانهم، لن أبرح المكان دون متاعي كلّه». حاول المسكين جاهدا أن يقنعه ويتشبّث بحمولته إلا أنّ مسلّم وقف في صفّ مسعود وأيّده قائلا: «كلامك عين العقل يا مسعود. لا تخفْ يا سالم. فلْنتكلّمْ بالعقل. لو تحرّكنا حالا ونحن خفاف قد نصل قبيل أو وقت المغرب أو حتّى بعده بقليل؛ حينئذ قد لا يدري أحد بما أقدمنا عليه، وإن علموا ستكون جريمتنا مغفورة ويمكن تجاوزها؛ لأنّنا لم نسبّب لهم أيّ قلق. لكن مع هذه الحدائد لن نصل إلا منتصف اللّيل؛ وحينئذ سيقلقون علينا، ولن يكون بالسّهل مسامحتنا، أفهمتني؟ هيّا فلنُسرِعْ قبل أن يحلَّ الظّلام، ونتوه. لو تُهنا في الظّلام -لا قدّر الله- سيحدث ما لا يُحمدُ عقباه. ما قاله مسعود في محلّه. بل هو الصّواب بذاته».

جهّزوا قطيعهم، وعادوا أدراجهم، يتقدّمهم قائدهم مسعود. استسلموا لجوعهم وتعبهم فخيّم عليهم الصّمت؛ ورغم ذلك لا بدّ أن يتحلّوا بالصّبر، يجب أن يتحمّلوا. تناسوا ما يعصف بهم من عطش وإرهاق، ومضوا يجرّون أثقالهم، يستحثّون أقدامهم وأبقارهم قدر الإمكان في مسابقة مع الزّمن. وبينما هم في تلك الحالة علا صراخ صديقهما في المقدّمة: «انظرا. تقدّما

بسرعة، أرأيتما؟ إنّه قطيع أبقار كبير». هرولا إليه، تيقّنا ممّا قاله، ثمّ شرعا في القفز فرحا وكأنّهما يستعيدان رقصة الزّنوج تلك. ولكن سرعان ما هدؤوا، وبدؤوا يتساءلون فيما بينهم:

مسلّم: يبدو أنّ صاحبهم غريب. أيعقل أنّ أحدا من صلالة يملك قطيعا كبيرا كهذا؟

سالم: أتراهم من الجبل؟

مسلّم: يبدو كذلك. يبدو أنّهم نازلون بأبقارهم إلى صلالة لبيعها هناك.

مسعود: لا أحد من أهل الجبل يملك قطيعا كبيرا كهذا في هذه المرحلة. ثمّ إنّ أهل الجبل لا يسوقون أبقارهم للبيع بالجملة بهذه الطّريقة؛ حتّى وإن عزموا على بيعها كلّها؛ يكون تقسيمها واجبا، وينزلونها للسّوق على مراحل. وما أعرفه أنّهم لا يتجمّعون هكذا بقطعان عدّة للبيع؛ بل كلّ على حدة يبيع ما امتلك منهم بكيفه.

سالم ومسلّم معا: فعلا. لم نرَ مثل ذلك من قبل في صلالة.

مسعود وهو يفكّر: من هؤلاء يا تُرى؟

سالم: يبدو الأمر غريبا.

مسلّم: يجب أن نحترس. إنّهم بمسافة ليست ببعيدة عنّا.

خالجتهم حيرة، وكاد أن يتلبّسهم الخوف لولا ما طرق بال مسلّم الّذي سأل في الحال: «أيُعقل أن يكون قطيع الحافّة برفقة الرّاعي محمود؟». أخذ سالم في النّداء بأعلى صوته: «محمود، محموود»، بينما ردّد مسعود وهو

يصفّق: «أجل، نعم، هو ومن غيره؟ لم يخطر على بالنا أنّه قد أتى بهم إلى هذا المكان. تقريبا انطلقنا في نفس الوقت، لقد نسيناه فعلا، المهمّ أنّه قريب منّا الآن، فلْنُسْرعْ؛ كيْ نلتحق به».

شرع سالم بالعدْوِ؛ ثمّ تراجع ليحثّ الأبقار، ولم يكفّ عن النّداء؛ علّه يسمعه فينتظرهم. ضحك عليه رفاقه قائلين: «من أين لك كلّ هذا النّشاط؟»، فقهقه مؤيّدا: «لن أحافظ على أيّ طاقة، ما إن أصل عند محود حتمًا سأجد الماء والطّعام. مؤكّد أنّه يحمل زادًا، إنّه راعٍ حقيقي». انفجرا بالضّحك قائلين: «ونحن مزيّفون؟ ههه...»، ثمّ أشار عليهما مسعود: «كلامك صحيح، لن نقدر على التّقدّم سريعا بهاته الأبقار، وقد أهلكنا العطش والجوع. فلْينطلق إليه أخفّنا حمولة؛ الّذي هو مسلّم، ولْيأتنا منه ببعض الماء علّنا نستردّ قوانا؛ فلقد أهلكنا المشوار الأوّل. هيّا اذهبْ سنقتسم نحن حمْلَ أغراضك». نظر إليه مسلّم نظرة المغلوب على أمره، أنزل من على أكتافه ما تزوّد به من أغراض ثمّ قال: «سأصل إلى القطيع سريعًا، وسأستوقفه إلى أن تلحقا بنا. لكن ألم يخطر ببالكما أنّه من الممكن أن لا تجداني حيّا؟». ربّت سالم على كتفه مبتسمًا يحاول إخفاء ضحكته واستهزاءه: «لا تخف، إنّه العمّ محود لا غيره. ههه... فور أن تصل إليه سيصبّ الماء على رأسك ويُنعشك. على العكس تمامًا؛ لن يتركك تموت. ههه... كلّ ما في الأمر قد يرفض التّعاون، ولن ينتظرنا. لو فعل، اعرض عليه أن يرعى قطعاننا من الغد إن شاء الله. ما إن يسمع ذلك سيوافق

مباشرة. نعم سيوافق؛ لقد خسر اليوم خسارة فادحة. الكلّ تخلّى عنه بسبب رسوم الرّعي الّتي طلبها، ويحتاج إلى كسب زبائن من جديد، لن يرفض، لا تخف، هيا».

ظلّا يراقبانه إلى أن وصل، وقلباهما يخفقان خوفا من أن يصيبه مكروه، ويدعوان بأن يكون توقّعهما صحيحا. وبالفعل نجح في أن يوقفه. أسرعا قدر المستطاع كي يلتحقا به. وأخيرا أدركا مبتغاهما. وجدا صديقهما ممدّدا على ظهره فوق العشب بعد أن قضى وطره من الماء استلقى بجانب العمّ محود؛ قرفص ساقا وأثنى الأخرى عليها، والابتسامة كستْ وجهه. كان منظره مضحكا وهو يمسك بقطعة من كعكة القالب الثخين الظّفاريّة، تارة يقضم منها وتارة أخرى يتفحّصها وكأنّها قطعة أثريّة. أسرعا إلى قربة الماء حذوه، شربا إلى أن ذهب الظمأ وابتلّت العروق. وارتميا بدورهما على الأرض بجانب رفيقهما، يمازحانه، يحاولان الاقتصاص من كعكته، وهو يتعزّز؛ يُحاول منعهما. فجأة انتبهوا إلى ردّة فعل العمّ محود؛ فلقد كان يحرّك رأسه يمنة ويسرة مستغربا ممّا أقدم عليه هؤلاء الصّغار، عَلِمَ فعلتهم دون أن يسألهم، واستنكرها في صمت أيضا؛ اكتفى بالتّعبير عن ذلك بحركته تلك الّتي أخرستهم، وشلّت حركتهم لفترة. حاول سالم قطع ثِقل الصّمت وما يتضمّنه من عتاب علّه يستمع إليهم ويعذرهم: «لقد أخّرك الله لأجلنا يا عمّ محود. الحمدلله والشّكر لله». لكنّ الرّاعي لم يستأنس بما قاله، وردّ عليه بنبرة جادّة وكأنّها تحمل خبرًا رسميًّا من وكالة الأخبار: «ارتويتم، شبعتم. وعلى ما أعتقد رجعت كلّ أحاسيسكم الآن. ولا أعلم الإحساس

بفزع الآخرين؛ إحساس المسؤوليّة تجاه الأهل قد عاد إليكم أم لا. على ما يبدو أنّكم أضعتموه فيما قبل». التفت الثّلاثة إلى بعضهم البعض، ولم يفهموا شيئا، ذهبوا في رحلة رعي واستكشاف وها هم سالمون غانمون أيضا، ولم يصبهم مكروه، فلمَ يحدّثهم عن المسؤوليّة؟! هم لها عنوان الآن. ردّ عليه سالم: «بالعكس تماما. نحن الآن مفعمون بالمسؤوليّة. رعينا أبقارنا وأنفسنا أيضا»، ابتسم، وأجابه: «طيّب، اسمعوني. على ما يبدو أنّكم تسبّبتم في مشكلة. المسؤوليّة تتجسّد حتّى في مراعاة مشاعر الآخرين. لقد جاءني قبل ساعتين تقريبا أربعة شباب من جماعتكم يمتطون الحمير، وسألوني إذا ما كنت قد رأيتكم أم لا. لقد كانوا في منتهى القلق». سكت قليلا، وانتظر ردّة فعلهم؛ لكن خبره لم يحرّك ساكنا، ظلّوا يطالعونه وكأنّ الأمر لا يعنيهم، شكّ بأنّهم لم يصدّقوه، فاستدرك يُحاول استحضار الشّواهدَ الّتي تُقنعهم: «حتّى إنّي.. كنتُ حينها أسقي الأبقار ههناك». أشار بعصاه إلى منخفض تتناثر حوله أشجار متوسّطة الارتفاع وقد ظلّلت مساحات عدّة. في تلك اللّحظة تفاعلوا قائلين بدهشة: «يا سبحان الله!»، ضرب مسلّم على رأسه، وقال: «لم يكن يفصلنا عن الماء إلا دقائق معدودة»، زفّر مسعود قائلا: «لم يكن لنا علم بذلك. آه، لو أسعفنا الحظّ، لارتوينا وتظلّلنا وإضافة إلى ذلك لكنّا اكتشفنا هاته النّباتات وما يمكن أكله». تأفف سالم بدوره، وأضاف: «ما حصل لنا يشبه ما حصل لكفّار قريش حول الغار. أستغفر الله».

رماهم العمّ محود بنظرة محق واستغراب معًا؛ ثمّ ضرب الكفّ بالكفّ قائلا: «العجب العُجاب. الحافّة بأكملها انقلبت سافلها على عاليها؛ يبحثون عنكم في كلّ مكان، وهذا كلّ همّكم؟ الآن فهمت. لن يُقدم على هذا إلا أمثالكم أيّها الأبالسة. لولا رآكم أحدهم بالصّدفة، وأعلم أهاليكم بتجاوزكم منطقة المزارع ناحية الدعن؛ لكانوا يبحثون عنكم الآن برّا وبحرا، المساكين. ألم تتخيّلوا مدى حيرتهم الآن؟ خصوصا بعدما أخبرتهم أنّي لم أرَ أحدا اليوم. المساكين طلبوا منّي التّريّث في العودة عسى أن ألقاكم، وأعطوني كعكتين علّي أصادفكم وتكونون جائعين. لا أعلم لماذا يخافون عليكم، وأنتم تخوفون الجنّ. (يجحكم ابليس من سربات)».

علِمَ الرّعّاة الصّغار بعظمة القلق الّذي تسبّبوا فيه لمن يحبّونهم، طأطؤوا رؤوسهم في خجل، لم يتوقّعوا ذلك ولم يفكّروا فيه حتّى، بينما واصل العمّ قائلا: «ليس وقت النّدم الآن. ما حصل قد حصل». استفهم مسعود: «بأيّ اتّجاه ذهبوا؟» فنهره بجدّيّة: «إيّاك أن تزيّن لك نفسك اللّحاق بهم. ستتحرّكون بمعيّتي إلى صلالة. وعموما، اتّفق الأربعة قبل مغادرتهم على التّفرّق، وقد أعلموني بذلك؛ اتّجه اثنان منهم ناحية الغرب نزولا إلى وسط صلالة، واتّجه الآخران شرقا نزولا إلى الدّهاريز؛ ثمّ سيلتقي الجميع في نهاية المطاف عند الحافّة. ولهذا سنوافيهم هناك مباشرة. هيّا استعدّوا للرّحيل، وسلّموني قيادة كلّ الأبقار». أحسّ بغيمة الحزن والخوف الّتي حلّقت في سمائهم؛ فحاول تلطيف الأجواء وممازحتهم، نظر إلى سالم

ناكتًا: «ههه... يا سالم، يا سالم، أصبحتَ راعيًا إذن؟! تريد أن تنافسني في الرّعي»، ردّ عليه الأخير بخجل: «حاشا لله. أردنا أن نحلّ المشكلة الّتي حصلت هذا اليوم، نتّكل على أنفسنا ونساعد أهالينا لا غير. من المؤكّد أنّ العصي وأعواد الميطان تنتظر وصولنا الآن. ادعُ لنا أن لا تُكسر بها عظامنا». قهقه قائلا: «لا لاا، لا تخافوا. لن أدعهم يبرحونكم ضربا. أنتم زملائي الآن. ههه... آه منكم يا أبالسة. ضيّعتم عليّ تجارتي أيضا. لكن فداكم، المهمّ أنّكم بخير. هيّا أسرعوا. سيحلّ الظّلام قريبا». أضاف عليه سالم قائلا: «وأضعنا نومنا وراحتنا. أشعر بأنّ جسمي قد تهتّك من التّعب»، بينما ردّد الآخران باستغراب: «تجارتك؟»، التفت الرّاعي لمباشرة عمله قائلا: «عاتبا رفيقكما سالم؛ لم يحضركما معه يوميّا لتشتروا من عندي».

لم يكن العمّ محود مجرّد راعٍ؛ بل كان مصدر بهجة لمن يعرفه. رغم أنّ الكبر قد بلغ به مقام الشّيب والرّاحة؛ إلا أنّه لا يمكن أن يمرّ عليه يوم دون عمل. كان نشيطا لا يأس له. ككلّ الظّفاريّين وقف وجاهد ضدّ البؤس ولم يستسلم للفقر. خلق لنفسه مورد رزق مميّزا بالإضافة إلى الرعي. تعلّم الحماس إلى أن صار جزءًا لا يتجزّأ منه. قليل الكلام، وإن اتّخذ قرارا لا يتراجع فيه البتّة؛ لأنّه يأتي بعد تفكير عميق. يعلم الجميع أنّه لن يتراجع عن قرار الزّيادة؛ لأنّ له أسبابه الصّارمة لا محالة. في الوقت الّذي هاجر فيه معظم شباب ظفار إمّا للالتحاق بكتائب الثّوّار بالجبل وإما للاسترزاق بأحد

البلدان الشّقيقة كالكويت، والسّعوديّة، إلخ... اختار الرّعي بالنّهار، وبيع طبخة الفندال بعد العصر عند رجوعه.

قال سالم لصديقيه: «كلّ أهل الحافّة يعرفون العمّ محمود. هو كثير الاختلاط ومحب للنّاس يؤدّي عمله بإتقان وإخلاص، ولا يثرثر. أشكّ أن يعرفه أهل المناطق الأخرى؛ أقصد الجبّاليّين والبدو. لا لشيء لأنّه في عالمه الخاصّ، مقتصر عليه. تراه صارما لكنّه في الحقيقة ليس هناك من أطيب منه».

قاطعه مسعود قائلا: «إلى الآن لم تخبرنا بتجارته».

ضحك وردّ عليه: «حسنًا، حسنًا. دائمًا مستعجل. إنّه أمهر طبّاخ للفندال. بعد أن يعود من رحلة الرّعي الشّاقّة يجلس أمام قدره الكبير عند بيته في ميدان الحافّة، ويطبخ فنداله اللّذيذ، وتشتري منه معظم البيوت. الكلّ يعرف جيّدا أنّه ينتقيه بعناية؛ لتصنع منه خبيصة أو مقصقص أو... أووه. تضوّرتُ جوعا الآن. تخيّلتُ وأنا أغمسه بالشّاي أو باللّبن، اممم... صراحة أتردّد عليه كثيرا، سأحرم منه اليوم، ضيّعنا عليه طبخته. الكلّ سيستغرب؛ لأوّل مرّة يتخلّف العمّ محمود عن قدره، ونحن السّبب».

أضاف مسلّم معتزّا: «الفندال، رفيق حياة الظّفاريّين؛ الحضريّين، الجبّاليّين والبدو. معظم مزارع صلالة تنتج أفضل أنواعه. يمكن تخزينه وحفظه لأسابيع مثل البطاطا».

قاطعه سالم قائلا: «نعم، ويعمل منه كلّ طبخاتي المفضّلة، اممم... طبخات شهيّة عديدة: مرق جوز الهند، الخبيصة بالسّمن أو مع الدّبس، مشوي أسفل أرضيّة تنّور الكعك الأرضي أو مشوي على كومة حطب. صحيح، قد يأخذ وقتا لكي يجهز على النّار، يُشبه البطاطا في قساوته؛ لكن طعمه السّحري يهوّن الانتظار».

أيّده مسعود: «اممم... هو بالأساس بطاطا حلوة. صحيح، يهون الانتظار أمام تذوّق حبّة فندال مشويّ. حرام عليك، سال لُعابي، ههه..».

نهرهما مسلّم قائلا: «أنا لم أقل ما قلته لأثير شهيّتكما. لم تتركا أكمل حديثي. لمَ تقاطعانني؟ المهمّ، استمعا لي جيّدًا. بما أنّ مزارعنا تنتجه بكثرة، وبجودة عالية، وله فوائد عدّة، لمَ لا نتاجر فيه؟ ونفتح مطعما متخصّصا في الفندال؟».

ضحك سالم وقهقه؛ ثمّ ردّ: «نافسناه في الرّعي، والآن سننافسه في تجارته. لو سمعنا لقال إنّنا نستقصده دون غيره؛ وكأنّ أحدًا سلّطنا عليه والعياذ بالله، هه..».

سانده مسعود القول: «صراحةً. الرّجل لم يقدّم لنا إلا كلّ خير، أيكون جزاؤنا له أن ننافسه في رزقه؟».

استدرك ممهمهًا: «الأرزاق بيد الله. طيّب، انسيا الأمر».

ردّ الاثنان معًا: «سنفكّر في ذلك لاحقًا. الموضوع يستحقّ التّفكير. موضوع مهمّ وجادّ».

ثمّ قال ثلاثتهم في آن: «تجّار فندال»، وضحكوا، وقفزوا، ورقصوا رقصةً شبيهةً برقصة الزّنوج. كان العمّ محمود ينظر إليهم مستغربًا، يغبطهم على روحهم النّقيّة المفعمة بالحماس وحبّ الحياة.

سلّم الرّعيان الصّغار قيادة القافلة للعمّ محمود بعد أن ضمّوا قطيعهم معه. استسلموا أخيرا للتّعب، بلغ بهم الإعياء منتهاه، ولو كانت الأبقار تصلح للرّكوب عليها؛ لامتطوْها. لزموا الصّمت. لكنّ بالهم لم يهدأ؛ منهم من شرد في تفاصيل الرّحلة، ومنهم من انهمك تفكيرًا في كيفيّة الخلاص من أعواد الميطان، ومنهم من تخيّل حكايات وروايات في ظلّ الظّلام الحالك الّذي يُحيط بهم. حدّث سالم نفسه حامدًا الله: «لولا توفيق الله، لو ما التقينا بهذا الرّجل الطّيّب كيف كان بإمكاننا تحديد مسار الرّجعة وسط هذه الظّلمة وهذا الفضاء اللّامتناهي؟ نحن بالكاد اهتدينا إلى طريقنا بالنّهار، فما بالك بالسّير وسط هذا اللّيل البهيم الّذي لاشى أيّ شيء يمكن الاهتداء به، والبهائم برفقتنا؟! كيف كان من الممكن السّيطرة عليها؟».

كان يتنهّد بين الفينة والأخرى دون أن يشعر. لاحظ العمّ محمود ذلك فحاول التّهدئة من روعه معتقدًا بأنّه خائف ممّا سيلقاه: «لا تخف من عقاب أهلك. جدّك صاحبي. سأرافقك إليه، وأحاول منعه عنك»، فأفصح له عمّا يخشاه: «واللّه عقاب جدّي أهون ممّا سألقاه من أمّي. لا أعزّ من الولد إلا ولد الولد، جدّي سيرأف بحالي مؤكّد. سيتفهّمني؛ بالأخير هو رجل ويعلم مدى حاجة الرّجل لمعرفة بيئته ووطنه ومعنى الاعتماد على النّفس لديه.

لكن الخوف الحقيقي من تلك القوّة النّاعمة عندما تعصف أذناي، وتُجرجر شعري، والأشدّ إيلاما عندما تُسمعني أبغض الشّتائم وتتّهمني بما ليس فيّ». ضحك العمّ من قوله، طبطب عليه قائلا: «الأهمّ أن تستسمحها، وتسكت مهما قالت لك. أبشّركم يا شباب. اقتربنا. ها نحن وصلنا إلى مشروع بوابة شبك رقم5 في الدّعن»، صرخوا فرحًا: «الله، مررنا به صباحًا». باختصار ما ترونه مجرّد أرقام عسكريّة لبوّابات الشّبك الرّئيسيّة. ألم تسمعوا عن بعض المناطق الّتي لها نفس مسمّاها رقم5 ورقم2 وغيرها؟».

فجأة جهرت أعينهم أضواء كاشفة ممّا أحدث جلبة بين الأبقار. شعر الشّبّان الثّلاثة بالقلق؛ فمن المؤكّد أنّ الموضوع خطير، لايوجد إلا قلة من المواطنين تمتلك سيّارة، ومن لديه لا يسمح بعد بالوصول لهذه الأماكن؛ فاحتماليّة أنّ أحدهم قد أتى للبحث عنهم غير ممكنة. تأهّبوا استعدادًا للهجوم المعاكس، ونظروا للعمّ محود نظرات استفسار وحيرة وكأنّهم يُخبرونه بأنّهم في أتمّ الاستعداد للمواجهة. فهِمَ مقصدهم وخوفهم فتمتم ليهدّئ من روعهم: «دوريّة. دوريّة. لا أحد يتكلّم إلا حين يصلون إلينا وفقط عندما يطلبون منكم ذلك. وإن سألوكم، قولوا الحقيقة كما حصلت دون زيادة أو نقصان». اقتربت السّيّارة؛ وإذا بها عسكريّة، داخلها عسكر مدنيّون. نادى أحدهم بصوت جهوريّ حازم: «من أنتم؟» فردّ عليهم بصوت متّزن محتشم: «صديق. أنا الرّاعي محود، عائد بأبقار الحافّة. تأخّرت في العودة اليوم لا غير»، لكنّ العسكري لم يكتفِ بذلك، أمره

بالتّقدّم نحوهم رافعًا يديه. شهق ثلاثتهم وكأنّ مصيبة حلّت فوق رأسهم، نهرهم قائلا: «لا أحد يبرح مكانه. لا تتحرّكوا شبرًا واحدًا. حافظوا على هدوئكم، هؤلاء الحرّاس مسلّحون. سأعود، لا تخافوا».

مراعي سهول وجبال ظفار

تمسمروا مكانهم، يراقبونه، يلومون بعضهم البعض بنوع من النّحيب الخافت لأنّهم السّبب. لكن سرعان ما شعروا بالطّمأنينة، وتلاشى ذلك الإحساس بمجرّد سماع ما قاله العسكري: «أهلًا. أنت معروف لدينا، العمّ محود، ليس من عادتك التأخّر إلى هذا الوقت. ما الّذي دهاك اليوم؟». أشار إليهم فتمكّن منهم الرّعب من جديد خصوصا أنّهم لم يسمعوا ما كان يقول. لكن على ما يبدو أنّ الأمر مرّ بسلام، ونجح الرّاعي العظيم في صرف نظرهم عمّا ارتكبه الرّعّاة الثّلاثة. حرّكوا السّيّارة بكشافاتها في دورة تفتيشيّة

كاملة، تفحّصوا بها القطيع وحفظوا بها ملامح الأولاد ثمّ أشاروا لهم بالتحرّك.

بعد دقائق من السّير، رأوها ساعات وأيّام، ترامت إلى أعينهم أطراف ظلال نخيل الحافّة. ودّع المستكشفون الثّلاثة العمّ محمود شاكرين فضائله الكثيرة، ووعدوه بردّ الجميل. وقف الرّعّاة في جلسة مناقشة وتشاور؛ اتّفقوا فيما بينهم على الكلام الّذي سيقولونه عندما تطرح عليهم الأسئلة، فعلى ما يبدو ستكون المحاكمة شديدة ولا بدّ من تثبيت نفس الأقوال؛ كي لا يهول عقابهم. حلّلوا ما حصل، وفرزوا أفضله، توقّفوا عند المحاسن الّتي اكتسبوها، تأمّلوا خيرا، اعتلتهم فرحة تواجه أيّ ردع؛ فالآن أصبح عندهم ما يحكونه للنّاس ويروونه لأولادهم يوما ما ويقولون صار وصار.. أخذتهم نفحة الأمل من جديد، واتّفقوا على ضرورة الاجتماع منذ الصّباح الباكر مهما حصل ليعيدوا الكرّة بعد أن تنجلي غمّة اليوم المنتظرة. قال سالم وهو متّجه نحو أبقاره: «ضروري يا شباب. نجحنا في مهمّتنا، انظروا إلى غنائمنا الصّغيرة المفيدة، وانظروا إلى الأبقار إنّها سعيدة، نعمت بالرّعي. ألقاكما بالغد بإذن الله في نفس الموعد». أجابه مسلّم مؤكّدا: «تمّ، تمّ. لنا جولة ثانية على الحمير إن شاء الله. ونأتي بما تركناه من الموجودات. لكن فلْنُبكّر قليلا؛ كي لا يلاحظوا غيابنا مثلما حصل اليوم». صرخ مسعود بهمّة: «إذن نلتقي غدا بإذن الله بعد أن نوصل الأبقار إلى المزرعة. غنائم الغد ستكون كثيرة، نحمل قدر المستطاع منها ثمّ نتقاسمها بالتّساوي». افترقوا بضحكة

وأحلام جديدة ليواجه كلّ منهم مصيره الحتميّ، ويتجاوز محنة اليوم ليستقبل غدا مشرقا.

تردّد سالم كثيرا قبل أن يلج إلى البيت. لكن الجلبة الّتي أحدثها الأطفال بمجرّد رؤيته خوّلت لأمّه أن تدخله عنوة إلى الدّاخل. أمسكته من شعره الطّويل، وجرجرته إلى غرفتها دون أن تستفسر عن أيّ شيء. حاول أن يستسمحها، لكن كيف ستفلته وجدّته قد أغلقت الباب وراءها حتّى لا يسمعه جدّه ويسرع لنجدته. جلست تشجّع تارة، وتشعل نيران غضبها كي تقتل رهف مشاعرها، وتارة أخرى تمدّ لها يد العون؛ لدغة هنا ولكمة هناك. تلقّى ما تلقّى من صفع ولطم وجرّ إلى أن أتى الجدّ وصرخ بهم: «أجننتِ؟ تريدين قتل بكرك؟ لا أحد يضع يده عليه ثانية وإلا، أستغفر الله. ألا يكفي أنّ كلّ أولادي يعملون بعيدا عنّي، محروم من رؤيتهم؟ لن أسمح لكم بلمس شعرة منه. الرّجال تتفاهم مع بعضها البعض، ما دخلكما؟ اذهبا لشؤونكما. هيّا».

شعر سالم بعد كلّ تلك الآلام بارتياح نفسيّ عميق، تبادل الحديث هو وجدّه وضحكا مطوّلا. ثمّ قام ليغتسل ويأخذ قسمه من الغداء. قال بانتعاش: «يا سلام، يا لحظّي! هذه الغنيمة الحقيقيّة، بعد جهد يوم كامل أجد أكلي المفضّل؛ أرزًا مضروبًا بالسّمن البلدي ونصف قطعة سمك الكنعد مع الرّأس بالشّتني ورأس الفجل. اممم.. حنونة رغم قساوتها. أحبّك أمّي». التهمّ الصّحن بأكمله، وتمدّد من شدّة الإرهاق في نفس

المكان، ولم يصحُ إلا على صوت طائرة عسكريّة تمرّ فوق بيتهم؛ فقام بنشاط يردّد بفرح: «إذا طارت لها دويّة.. إذا حطّت سوّت عصارة»..

منظر جوي جزئي لولاية صلالة فى الستينات

الهاربون والعائدون

طرق عمر باب جيرانه؛ منزل أبي سالم. فتحت له الأمّ، ورحّبت به بحفاوة. سلّم عليها بخجل، وسألهاعن صديق طفولته سالم، وطلب منها مناداته. لم تغيّر الأيّام في معزّته لديها مهما كبر ومهما اغترب؛ فلطالما اعتبرته ابنها أيضا. أصرّت عليه بالدّخول قائلة: «هيّا إلى الدّاخل. تعال اشرب معي الشّاي إلى أن يكمل سالم؛ فهو في الحمّام يغتسل». فنادى بأعلى صوته: «هيّا يا سالم أسرع. بالله عليك يا سالم، اخلص بسرعة. لا تنسَ مدى طول الطّريق إلى الحاضري». قطّبت أمّ سالم حاجبيها والتفتت إليه مستفسرة مستغربة: «ما هذه الحاضري الّتي تذهبون إليها من (غبشه) طيلة هذه الأيّام؟». تبسّم وأجاب مستنفرا: «ألم يخبركِ سالم يا خالة؟»، فردّت في الحال بصوت منخفض وكأنّها تريد أن تسرّه الحديث: «الله يهديه، تعرف صاحبك جيّدا. إنّه قليل الكلام عن أموره؛ يعتبرها من خصوصيّاته.

حتّى أنا أمّه الّتي أنجبته يُخفيها عنّي. هداه الله، أخذ من طباع والده الكثير».
ضحك عمر محاولا طمأنتها: «ليس إلى هذه الدّرجة يا خالة. لا خصوصيّة في الموضوع. قد يكون تكتّم ليُفرحكم في الوقت المناسب لا غير. سأعلمك بالأمر؛ فنحن نحتاج دعاءك وبركتك. طيلة أيّام الأسبوع الماضي تردّدنا على الحاضري؛ لكنّنا في كلّ مرّة نعود بخفّي حنين. كما تعلمين أنهينا الصّفّ السّادس بمدرسة السّعيديّة. لكن للأسف هي المدرسة الوحيدة بصلالة، ولا يوجد بها صفوف أعلى. ههه.. يعني بالمختصر المفيد ختمنا العلم مثلما يختم طلاب المدارس الأهليّة قراءة المصحف الشّريف. وها نحن ليس لدينا شغل شاغل غير الفراغ. فكّرنا في الوضع مليا، واحترنا في أمرنا إلى أن اهتدينا إلى حلّ. يجب أن نحصل على شغل. ولهذا السّبب، نذهب يوميا إلى الحاضري بالحصن. الحاضري يا خالة مكان يجتمع فيه كلّ الباحثين عن العمل كعمّال. يحتشدون هناك في صباح كلّ يوم؛ ثمّ تبدأ عمليّة الفرز من قبل المشرفين، صحيح أنّ من يأخذونهم في كلّ مرّة عدد قليل إلا أننا نسعى والباقي على الله. دعواتكِ يا خالة. عسى بدعائك نتوفّق اليوم، ونباشر أوّل يوم في العمل. أتعلمين؟ يبلغ أجر اليوميّة نصف ريال. يعني ريالين، لو أكرمنا الله بيومي عمل في الأسبوع. الله يا خالة. بما معناه، ثمانية ريال في الشّهر. سنسدّ مصاريفنا واحتياجاتنا الشّخصيّة، ونريحكم منها. سنتصرّف كرجال مسؤولين؛ ولن نمدّ أيدينا إلى أهالينا. ثمّ أنت على علم بظروف البلد؛ يجب أن نعتمد على أنفسنا. بالله عليكِ كثّفي لنا من

الـدّعاء». تمعّنت أمّ سـالم حديثه، أصغت بتركيـز وحكمـة؛ ثـمّ قالـت: «لا حول ولا قوّة إلا بالله. مـاذا أقـول؟ مـا زلتمـا صـغيرين علـى العمـل كعمّـال. لكن كما قلت ظروف البلد.. أستغفر الله. وفّقكما الله لمـا فيـه صـلاح الـدّنيا والآخـرة. عسـى الله أن يرزقكمـا عمـلا خفيفـا، لا ضـغط فيـه، يسـيرا بـدون شقاء. اسعيا، لكن إذا وجدتما أنّ العمـل شـاقّ فـلا داعـي لـذلك. الله كـريم والصّبر زين. تأكّدا أنّ الأهل سيكفونكما مثلما فعلنا طول فترة دراستكما»، وانشغلت؛ تتمتم بالدّعاء.

خرج سـالم أخيـرا من الحمّام مسـتعجلا قـائلا: «هيّـا تحـرّك، سـألبس ثيـابي علـى عجالـــة، وأتبعـــك. دقيقتان فقـط»، فلامـه متمســـخرا: «كأنّـــك نسيت موعدنا أم أنّك تكاسلت؟». أجابه ناكرا ما رماه به: «أنا المتكاسل أم أنت المسـتعجل؟ إنّهـا عادتك، أتنكر؟ ههه.. هيّا، لا تضيّع الوقت». استوقفتهما الأمّ آمرة: «انتظرا، لن يخرج أحد من هنا قبل الفطار. سأحضر لكما خبزة كعك ثخين تأكلانهـا

مع الشاي الملبن، لا يصحّ أن تذهبا للعمل ببطون خالية». نظرا إلى بعضهما البعض وردّدا: «العمل»، تبسّما، وتفاءلا خيرا، واعتبراها بشارة الصّباح.

كان الجوّ حارًّا يوحي بدخول الصّيف، ولم يزده الطّريق التّرابي إلا قيظا. رغم ظلال شجر النّارجيل الّتي زيّنته إلا أنّه كان مقفرا. عكست الأجواء شحوبيتها على كلّ من سالم وعلي فالتزما الصّمت. وتداخل صوت حثيث أرجلهما مع نعيق الغربان، وتلاطم أمواج بحر الحافّة. لاح سور الحصن من بعيد؛ فتباطآ قليلا وكأنّهما يسترجعان أنفاسهما أو يستردّان هيبتهما. اعترضهما عريش سوق الخضار فقال سالم: «متى نصير مثل هؤلاء الرّجال، نشتري مستلزمات الأكل بأنفسنا؟ يا الله، يا كريم»، فردّ الثّاني: «وأنا أيضا أتوق إلى تلك اللّحظة. الله كريم». رجعا إلى هدوئهما، ولازمهما الصّمت من جديد. لاحت لهما جلبة على غير العادة عند دكاكين سوق الحصن. قالا معًا في نفس الوقت: «وصلت بضائع جديدة من عدن»، ثمّ أردف أحدهما: «إنّها بشارة خير. وإنّه لنذر منّي؛ لو قدّر الله لنا واشتغلنا اليوم سأغدق الأهل بحلوى القالب العدنيّة»، فلامه الآخر: «أتهدر أوّل أجرة تتسلمها في حياتك من أجل بضائع الإنجليز المجلوبة من عدن؟»، ردّ عليه: «فداء أهلي أحلى البشارات؛ قواطي جبن الكرافت الزرقاء، قوالب صابون لوكس ولايف بوي الأحمر الفوّاحة، قوالب الحلوى العدنيّة». أجابه الثّاني مستهترا: «تتكلّم بثقة عمياء وكأنّنا سنشتغل اليوم». قهقها، واستمرّا بالضّحك إلى أن بلغا الشّارع الموازي للمدرسة السّعيدية. حينئذ

توقّف عمر قليلا، ألقى عليها التّحيّة بيده من بعيد ثمّ تنهّد بقوّة، والتفت لسالم يخاطبه: «يا ترى كم سنستمرّ على هذه الحالة؟ أيُعقلُ أن يتوقّف مشوارنا إلى حدّ الصّفّ السّادس؟ ألن نواصل التّعليم؟ كيف السّبيل إلى تعليم أعلى من الصّفّ السّادس نطوّر به مستوانا أو عمل يشغل أوقاتنا؟ مللتُ هذه الحال. أستغفر الله». ابتسم صاحبه باستهزاء، وقال: «وهل لديك خيار آخر؟ هذه هي حال الجميع، حتّى الأجيال الّتي تخرّجت قبلنا من الصّفّ السّادس تعاني من نفس الحال. لم يتحصّل على فرصة عمل في الحكومة إلا اقل من عدد أصابع اليد الواحدة منهم كل عام بوظيفة كاتب، ويقولون لأنّ أهاليهم يعملون لديها بالأساس، وواحد أو اثنان يبيعان عند البانيان. سمعتُ أيضا أنّ ثلاثة منهم اشتغلوا في دكاكين أقاربهم في سوق الحصن». شهق عمر نافيا، وردّ بحدّة: «ليس صحيحًا. أعرف الكثير ممّن تخرّجوا العام الماضي والعام الّذي قبله وقد اشتغلوا. أعرفهم معرفة شخصيّة. من الأهل، يمدّون إلينا بصلة قرابة. والحقيقة أنّهم لم ينتظروا ولم ييأسوا، هربوا وسافروا إلى الخارج، والآن ينعمون بمزايا عدّة كلّ حسب طموحه. فمن رغب في إكمال دراسته له ما شاء، ومن أراد العمل فقط نال رغبته، ومن أراد الاثنين معًا كان له ما يريد. يقولون إنّهم تلقّوا تعاونا كبيرا، وهناك تآزر كبير بين العمانيين هناك. وعمّا قريب سنسمع عن هروب زملاء جدد سواء من دفعتنا أو من متخرّجي هذه السّنة. ماذا بقي لنا في صلالة؟ أشعر أنّنا سنفرّ الواحد بعد الآخر ولن يتبقّى فيها إلا الأطفال والنّساء

والعجائز. الوضع مزرٍ بأتمّ معنى الكلمة. الوجع الحقيقيّ أن هؤلاء سيظلّون لحالهم بدون سند، يُعانون من العجز؛ فكلّ الشّباب الّذين ينعمون بالقوّة سافروا لعجزهم أيضا، وللأسف من يسافر خارج البلد لن يتمكّن من العودة لأنّهم سيمنعونه من السّفر مرّة أخرى. من الآخر، أصبحت صلالة سجنا كبيرًا».

أخيرًا وصلا إلى الحاضري. ولم يتغيّر الأمر، الحال ذاتها ككلّ يوم. يقف المشرف العام للحاضري بملفّه في المقدّمة، وخلفه مشرفو مجموعات الأعمال المتوفّرة. يختار كلّ منهم العدد الّذي يحتاجه من العمّال في هذا اليوم. يقومون بفحص بنيتهم بعناية كما يتفحّص الطّبيب مريضه كي يكشف علّة ما. وتختلف نوعيّة الكشف على حسب نوع العمل وما يتطلّبه؛ عمّالا للبناء، أو عمّالا لنقل الحجارة من أسوار البليد وبقايا أطلال بنيانه، أو عمّالا لنقل كزاب النّارجيل من مزرعة السلطان، إلخ.. بعد ذلك تلتحق كلّ مجموعة بمشرفها المباشر. اكتفيا بمراقبة الوضع من بعيد على أن يتزاحما كعادتهما مع البقيّة. لم يتقدّما إلى الأمام كما يفعلان في كلّ مرّة بنيّة تقوية فرصة اختيارهما. كانا مقتنعين تماما بأنّه لو لهما نصيب في أمر ما سينالانه، أو لعلّهما استسلما لليأس ووقفا ينتظران النّتيجة ذاتها والعودة بخفّي حنين خصوصا أنّه تمّ الاختيار وتكوين جميع المجموعات، ولم تتبقّ سوى مجموعة نقل النّارجيل من رزات إلى المخازن بالسّوق. كانا على مشارف فقدان الأمل لهذا اليوم أيضا لولا أن أشار لهما المشرف العامّ

بالتّقدّم نحوه. لم يصدّقا حالهما، أسرعا متعثّرين. قال له عمر ممتنّا: «شكرا عم درويش على اختيارنا»، مال برأسه نحوه هامسا: «أنتما تستحقان العمل؛ لكن أعمال الأسبوع الماضي كانت شاقّة، ومرهقة عليكما. يجب مراعاة سنّكما وإلا نفرتما من العمل وأنتما في بداية المشوار. اليوم لدينا عمل نقل النّارجيل، وهو باعتقادي مناسب لكما؛ خفيف ويتمّ في الظّل تحت أشجار النّارجيل بمزرعة رزات وفي المخازن. يجب المحافظة على شباب المنطقة وتشجيعهم أيضا. أليس كذلك؟»، فرح عمر بالعناية الّتي يكنّها هذا الرّجل الطّيّب، ونسي أيّام الانتظار المملّة والخائبة؛ فردّد بحماس: «شكرا، شكرا لك يا عم درويش. نحن لا نطمح لأكثر من فرصة يوم أو يومين خلال الأسبوع. لا نطمع إلا في تغطية مصاريفنا الشّخصيّة»، فأيّده المشرف داعيا: «أعلم أنّكما أنهيتما الدّراسة. الله يفتح لكما أبواب الرّزق ويرضى عنكما. إن شاء الله ستجدان الفرصة الّتي تطمحان إليها. المهم أن تتحلّيا بالصّبر، وتحضرا يوميّا إلى هنا؛ فلا ندري أيّ الأيّام الّتي يتوفّر فيها عمل مناسب لكما»، ضحك وأضاف بلطف: «اعتبرا حالكما ما زلتما بالمدرسة؛ غير أنّكما ستداومان هنا صباح كلّ يوم».

كانت العادة السّائدة عند أغلب أهل الحافّة تقضية أوقاتهم يوميًّا من العصر إلى المغرب على الشّاطئ. يتجمّعون في حلقات على امتداده تحت ظلال نخيل النّارجيل؛ كلّ حلقة لها روّادها، فترى بعضها كبيرة، وأخرى متوسّطة، على حسب المتحدّثين الّذين يمسكون بزمامها؛ فإن كان روّادها

من الظّرفاء أو أصحاب نكت أو ممّن لديهم تجارب وأسفار ولديهم زاد محترم من المعلومات القيّمة والقصص المشوّقة تجدها حلقة ضخمة، ويتوافد عليها عدد كبير من الأشخاص. كانت هذه الحلقات تلعب دورا هامّا؛ فهي وسيلة ناجعة لتناقل أخبار البلد، كلّ يدلي بما لديه ممّا شاهده أو سمعه من أمور تخصّ الآخرين. تجتمع فيها طبقات فكريّة مختلفة؛ إلا أنّ كبار السّنّ والصّيّادين يعدّون من الرّكائز، لا تخلو منهم أيّ حلقة. كانت مثل هذه التّجمّعات ممتدّة أيضا في دكك معظم مساجد صلالة، ووسط المزارع أيضا لتجمعات المزارعين وقت القيلولة لشرب الشاي وتبادل الاحاديث التي تهم أعمالهم وأخبار المجتمع والحرب الدائرة في الجبال؛ إلا أنّ حلقات الشّاطئ صيتها وجمهورها أكبر، وعدد مرتاديها أكثر من أيّ مكان آخر. لها نكهة مختلفة؛ تبعث فيهم حيويّة الحياة. يلطّفها بحر العرب وصدى أمواجه ونوارسه، ويبعث نسيما ينعش الرّوح، وتتلاطم أمواجه تُشاكسهم بين الفينة والأخرى وكأنّها تُذكّرهم بوجودها حين ينغمسون في الأحاديث وينسجمون مع سماع الأخبار، أو حين ينشغلون بلعبتهم الشّعبيّة المفضّلة؛ الثّبت. فلقد كان اللّاعبون يخطّون حدودها بشكل لا يتجاوز مساحة حجم الدّومينة على رمل الشّاطئ باستعمال حصيّات أو صدفات للعب كالشطرنج، وما إن ينسجم الجميع في اللّعب يخترق الموج الحلقة ويُشوّه ملامحها؛ إلا أنّ ذلك لا يزيدهم إلا متعة. تعلو حينئذ الشّتائم والقهقهات معا. ويتقاسم معهم الصّيّادون كلّ تلك التّفاصيل والأحاسيس

دون إهدار للوقت؛ يستغلّونه في إصلاح ما تمزّق من شباكهم أو في فتل خيوطها أو صنع الجديد منها، أو في إعداد خيوط الصّيد استعدادا لرحلة اليوم القادم. وأحيانا يتحمّسون مع هواة كرة القدم الصّغار؛ يشجّعون ويهتفون. كانت تلك الحلقات عالما بأكمله يمتدّ بسلام تحت حقول النّارجيل الشّاطئيّة المتفرّقة. كانا الشّابّان يقومان بمهمّتهما مستمتعين بكلّ ذلك. كان طعم كلّ شيء مختلفا ذلك المساء، به نكهة ألذّ من أيّ وقت مضى. نظرا إلى ما يحصل حولهما بعين واعية مدركة بحقيقة الجمال فلم يشعرا بقطرة عرق انسدلت من تعب. رغم كلّ الضّجيج إلا أنّ الأجواء غمرتها سكينة مريحة. فجأة ترك الصّيّادون شباكهم وركضوا باتّجاه البحر. تبعهم لاعبو كرة القدم، ولحقهم من رآهم. علا الصّراخ، تشتّتت الحلقات، وجرى الجميع خلفهم. فأسرعا بدورهما مع زملاء مجموعتهما يستفسران. قال أحدهم: «أكيد أحدهم غرق». ردّد الكلّ بفزع وهم يصرخون ويستنجدون: «غريق. غريق». همّ بعض شباب الصّيّادين بسرعة لتقديم النّجدة. التفت شيخ لمن حوله قائلا: «كلّ يتفقّد ابنه. ما زلنا في فصل الشّتاء، والبحر هادئ، وكلّ أهل الحافّة كبارا وصغارا يجيدون السّباحة؛ فلا يمكن أن يكون إلا طفلا صغيرا لا يجيد السّباحة بعد أو غريبا عنّا». ازداد اللّغو والهرج، وبدأت ولولة النّسوة تعلو. فنهرهم صيّاد عجوز: «استهدوا بالله وتفاءلوا خيرا. سينقذونه بإذن الله؛ هؤلاء من همّوا إليه هم أمهر السّبّاحين لدينا»، ما إن أكمل حديثه حتّى علا صوت عوض الصّيّاد الشّابّ

ذو البنية الحديديّة: «سلامات، سلامات. الحمد لله لم يغرق أحد. البشرى يا أهل الحافّة؛ سمك التّكواية نزل قرب الشاطئ. خيرات الله». ردّد الجميع: «الحمد لله، الشّكر لله، حلّ حول السّلامة، موسم التّكواية، نسينا، بدأ موسم التّكواية حقّا، بعد موسم الضّواغي يأتي موسم التّكواية. خيرات. الحمد لله، يا الله الهمّة. العزم، هيّا يا شباب. جهّزوا خيوط الصّيد.. جاءكم الرّزق. يا الله يا رازق».

هرول عمر وسالم مع الجميع لإحضار خيوط وأدوات الصّيد، وانقسم من على الشّاطئ بين متفرّج ومساعد ومعاون للصيادين. اندسّ الشّابان وسط الملحمة يشدّان ويجذبان يدا بيد مع الصّيّادين سمكة التّكواية كبيرة الحجم وهما يتخيّلان طعمها اللّذيذ. هذا النّوع من الأسماك لا يسوقه الله إلا في موسم معيّن من كلّ عام، ينتظره الجميع بفارغ الصّبر، ويأتي رحمة لأهل صلالة في هذه الأوقات، يستبشرون به، وتستمرّ عمليّة الصّيد لساعات طويلة من العصر إلى المغرب. ويظلّون على تلك الحال يوميا لمدّة ثلاثة أشهر متواصلة أو متقطّعة؛ على حسب ما يجود به البحر. حين يُلقون خيوط الصّيد وتُلامس المياه تعلق بها سمكة التّكواية، فيتمّ شدّها بسرعة وسحبها إلى الشّاطئ، وهكذا دواليك حتّى يخيّم الظّلام.

كان اليوم حافلا بالخيرات، ولم يحتاجا لشراء البشارة من دكاكين سوق الحصن كما حلما، عادا محمّلين بصيد وفير. في الطّريق قال سالم ممازحا ومستفسرا: «أما زلت تفكّر في ترك صلالة؟ أيعقل أن تترك خيرات بحرها

وتهـاجر؟ هنـا خيـرات، خيـرات والله. مواسـم صـيد التّكوايـة، سـردين الضّـواغي، عيـد العـلاء وماتحملـه مـن أسـراب. أتـذكر؟ في هـذا الموسـم بالذّات تخرج أسماك التّبانة في أسراب كثيفة إلى درجة أنّه يسهل مسكها باليد. ما شاء الله خيرات هذا البلد وسعت كلّ شيء؛ البحر واليابسة! كيف نُهاجر ونترك بساتينَ ممتدّة غنيّة بثمار فريدة كالنّارجيل والموز والفافاي والفندال و... الله على أجواء مواسم الحصاد في الرّصرة وسط حفيف أغصان النّخيل وتغريدات الطّيور باختلافها، وأصوات ضاربات مسابيط الحنطة وأغاني راعي المقود وهو يوجّه جماله ذهابا وإيابا إلى أن تتم عملية استخراج ماء البئر على أصوات المنجور الشجية. لا أعلم كيف تمكّن المهاجرون من ترك كلّ هذا وراءهم. أين سيجدون روائح اللّبان وعطرها الطّيّب؟ هنا الأجواء حافلة طوال السّنة، بها روح الحياة الحقيقيّة الأصيلة البسيطة؛ تتنافس الفصول لتقدّم أفضل ما لديها من جمال ورذاذ ودفء لأبنائها. أيُعقل أن تفكّر في الهجرة؟ أنت تعلم من يُهاجر قد يفقد كلّ هذه النّعم إلى الأبد. لن يسمحوا له بالعودة. أليس هناك حلّ؟ أيعقل أن تُسافر؟».

توقّف عمر هنيهة، نظر إليه باستهجان ثمّ ردّ بإصرار: «نعم، لا بدّ من السّفر. التّفكير في هذا الأمر يا عزيزي قد حُسم منذ فترة طويلة، ومفروغ منه. نحن الآن نحاول أن نجمّع من البيسات ما يسدّ حاجياتنا كي نتمكّن من المغادرة، وقد اتّفقنا على ذلك منذ فترة. اتفقنا أن لا نذكر ذلك لأحد حتّى

يتمّ الموضوع بنجاح. ما بالك الآن؟ هل ستخنع لما نعيشه من ذلّ بمجرّد أن تشارك بصيد التّكواية كبقيّة المستسلمين المستضعفين؟ نعم، أنا سأترك كلّ الّذي تغنّيت به لتوّك، ليس لأنّ كلّ ذلك لا يفرق معي؛ بل حبّا للتّغيير، للتّحرّر، للعيش. كلّ مايشغل بالي طول الوقت هو السّبيل إلى الهروب من هذا السّجن الخانق وطريقة تنفيذه. وبدلا من التّخاذل والاستسلام فكّر معي في إيجاد حلّ سريع؛ لأنّنا سننفّذ ذلك معًا. أنا وأنتَ معًا. شئت أم أبيت. أفهمت؟ لا للتّراجع، أتفهم؟». أحسّ سالم بالخجل، ولامسه ما يعتري صديقه من عصبيّة؛ فأجابه بحزم: «وأنا يا أخي عمر، يُراودني نفس شعورك. لا يختلف تفكيري عنك؛ بل يمكن أكثر. تعلم جيّدا أنّني أفكّر في ذلك من قبل تخرّجنا حتّى. منذ أن أشرف عامنا الدّراسي الأخير على الانتهاء وأنا مهتم بهذا الموضوع. لم أتخاذل أبدا ولم أتراجع رغم جمال صلالة ومواسمها وأجوائها؛ لكنّ الوضع لم يعد يُحتمل. نحن أحياء أموات. الّذي يُحبطني أحيانا فراق أمّي وهذه الأرض الطّيّبة الّتي لا دخل لها بكبتهم لنا ودعسهم علينا. هي رغم كلّ شيء تجود علينا بأزكى ما عندها. ثمّ إنّ والدتي لا أحد لديها هنا غيري بعد سفر أخويّ الاثنين عبدالله وحامد. ولن يستطيعا الرّجوع ككلّ من غادر إلا حينما يغيّر الله ما بعُمان من حال، وإن سافرتُ ستظلّ وحيدة لا سند لها. هذا ما يقلقني. أحاول التماس أيّ عذر كي لا أتركها. صعبة يا أخي صعبة، موجعة». لم يرد عمر أن يجيبه أو أن يبدي تعاطفه مع حاله، قرّر أن لا يؤيّده كي لا يفكّر في التّراجع، وفي

ذات الوقت أن لا يعارضه. مال نحوه، وهمس في أذنه: «احذر. انتبه أصبحنا وسط الشّارع، ولا يفترض بنا الحديث في مثل هذه المواضيع. باع الكثير ضمائرهم، واشتغلوا في نقل ما تتلفّظه الألسن على حين غفلة. أوّل ما نصل إلى البيت نوزع البعض من هذه الأسماك على الأهل والجيران، ننظّف الباقي كي يوضع للتّجفيف. نغتسل ثمّ نلتقي على سطح بيتكم فهو أكثر هدوءا من منزلنا، وآمن من أيّ مكان آخر. هناك نواصل حديثنا مستمتعين بإبريق شاي ونسمات اللّيل».

قضى الفتيان أعمالهما بسرعة، ورغم أنّ يومهما كان حافلا بالعمل والاصطياد إلا أنّ الإطراق في التّفكير كان واضحا على كلّ منهما. دار آخر حوار آلاف المرّات في ذهن كلّ منهما. لم يتوقّع سالم أنّ عمر سيتفرّغ من أموره بعجالة. استقبله مهلّلا وكأنّه لم يره من شهور ثمّ استكان كلّ منهما إلى صمت رهيب. ولم يستفيقا إلّا على رائحة إبريق الشاي وهي تستغيث نجدة قبل أن ينشف الإبريق ويحترق. حرّكه سالم في هدوء، أضاف إليه نبتة الشرياف الفواحة (شاي صلالة الاخضر)، ثمّ مدّ يده باستكانة إلى عمر قائلا: «هات، هات أفكارك يا أبا الأفكار. أنا لا أريد التّفكير بعقلي فعاطفتي تحكمه. أنا رهن لك، خطّطْ ونُنفّذ. لا تتركني لخياري فالأمر صعب». فرح بما قاله؛ فلقد تهمّم كثيرًا وخاف جدًّا بأن يتركه لحاله. أجابه: «جميل.. طيّب، اسمع، على حسب ما يدور بين النّاس عن حالات الهروب، وعلى غرار ما سمعته عن التّهريب والمهرّبين، هناك طريقتان لا ثالث لهما. أصغِ

إليّ جيّدا. بعد تطويق صلالة بالشّبك كالسّور الحديدي الّذي أُنشئ على امتداد البحر من الدّهاريز إلى ما قبل عوقد غربا، هناك طريقة شائعة جدًا للهروب؛ وهي عن طريق البحر، نتجاوزه سباحةً باللّيل. وأنسب مكان للانطلاق هو شرق الحافّة؛ فكلّما اقتربنا من الحافّة نختصر المسافة أكثر إلى خور صلالة غربا. ويعدّ هذا المكان الأكثر أمنا لمواصلة المشوار مشيا على الأقدام. نأخذ طريق الجبل سيرًا إلى أرض الغيضة المهرة باليمن، ومن هنالك نتّجه إلى عدن؛ ثم نركب الطّائرة مباشرة إلى الكويت. هذا حلّ ناجع ورائج كما قلتُ لك. وهنالك طريقة أخرى تُريحنا من مجهود وعناء السّباحة، صحيح أنّها أقصر ومربحة للوقت إلّا أنّها أكثر خطورة من الأولى. نتسلّق الشّبك، ونقفز من السّور؛ ثمّ إلى الجبل مباشرة. وقد صرف كلّ الهاربين النّظر عن هذا الحلّ مؤخّرا؛ فلقد أصبح السّور مزدوجا منذ فترة، وحركة دوريّات العسكر لا تهدأ طوال اللّيل، تجوبه ذهابا وإيّابا. لم يتمكّن من اجتيازه إلا قلّة قليلة، ويحكون أنّهم استعانوا ببعض الأدوات غير المعروفة إلى جانب جلود البقر؛ حتّى يتغلّبوا على أشواكه الشّائكة. وبقيّة من حاولوا تمّ القبض عليهم، وأودعوهم بالسّجن، وهناك من قُتل برصاص العسكر. فعلى الأرجح لا خيار لنا غير الحلّ الأوّل؛ يجب أن نجيد السّباحة. وهذا الأمر لا يقلقني؛ فكلانا نجيدها والحمد لله. يتبقّى توفير مبلغ مناسب من المال زادا للسّفر، وهنا الإشكاليّة؛ كيف سنتحصّل عليه في رهن الأوضاع الحاليّة؟ منذ فترة ونحن نرتاد الحاظري علّنا نحظى

بأمر لكنّ الأمر طال، وحان وقت الحزم وإيجاد حلّ آخر». سكت منتظرا تفاعلا إلا أنّ سالم ظلّ ينظر إلى الأرض. لكنزه غاضبا ونهره: «بُحَّ صوتي وأنا أفصّل وأفسّر، وأنت لا حياة لمن ينادي، مطرق بوجهك إلى الأرض. لا حول ولا قوّة إلا بالله. الله يهديك. إلى أين ذهب عقلك؟ أين سرحت؟». ضحك قائلا: «أستمع إليك والله. أفكّر في ما تقوله لا غير؛ لكنّي بدأت أشعر بجسامة الأمر الّذي سنقدم عليه من كلا الجانبين؛ التّنفيذي والمادي. لا تتخيّله مشوارا عاديًّا كمشوار الجبّاليّين في زيارتهم إلى صلالة، يجتازون الشّبك ليوم وحد بمجرّد تفتيش دقيق عند البوّابة الرّئيسيّة. أتعلم مدى خطورة السّباحة في المحيط، وليلا؟ قد يتحوّل الأمر برمّته إلى مسألة حياة أو موت». انتفض عمر من مجلسه بغضب قائلا: «توقّعتُ منك هذا الخذلان. ولا أعلم لم واعدتك مساء! لكنّي أعلم جيّدا رغبتك الجامحة في السّفر للعمل والدّراسة. لا أدري لِمَ كلّ هذا التّردّد! في نهاية المطاف سترافقني ولو اضطررتُ لأن أغصبك على ذلك، ستذهب معي ولو مشيا على الجمر. أتفهم؟ لا جدال في الموضوع لو سمحت. أستودعك الله، تأخّر الوقت. استكن لنفسك الآن، ولنا لقاءات أخرى بإذن الله كي نتناقش بالموضوع وتفاصيله.. سلام».

تتالت الأيّام، ومرّت ثلاثة أشهر بأكملها، لم يتطرّقا إلى الأمر، ولم يتفوّها ببنت شفة توحي بما يكنّانه من أفكار. حالفهما الحظّ، واستمرّا في العمل في الحاضري بشكل يومي. ضجّت حياتهما بأناس جدد، وعلاقات

عدّة؛ زملاء ورفاق وحكايات شتّى. حفل طريق العودة بأحاديث متداخلة وضحكات متلوّنة وآمال عدّة. نسيا روتين الذّهاب والإيّاب، وشحوبيّة الطّريق التّرابي؛ فلقد كانا مستمتعين جدّا بما يختلقه زميلهما بخيت من انتقادات مضحكة، وتعقيب سهيل عليه، وما يفتعله عوض من حركات بهلوانيّة. تضطرب الآراء ويحتدّ النّقاش أحيانا كثيرة لكن سرعان ما ينتهي كلّ ذلك بقهقهات صاخبة. سعدا جدّا بعالمهما الجديد. وجدا فيه تعزية كبيرة لما يخالجهما من إحباط. ظلّا على تلك الحال إلى أن تمّ تفريقهما عن بقيّة المجموعة. تقبّل سالم الموضوع ببساطة؛ بينما تمعّنه عمر جيّدا ودرسه من جوانبه المختلفة ولم ينم ليله من كثرة التّفكير. خالجه شعور اليأس من جديد. عادا في اليوم التّالي بمللهما المعتاد وضجيج الرّأس المؤلم، ولا هناك نكت سهيل، ولا سخريّة بخيت، ولا شغب عوض. كلّما أراد أحدهما مفاتحة الثّاني في أمر لجأ إلى الصّمت من جديد. ثمّ قرّر عمر شدّ لجام الحديث، أحسّ بضغط شديد، سينفجر إن لم يحدّثه بما لديه من أفكار: «ألم تسأل نفسك لمَ حرمونا الذّهاب مع العمّال بالسّيّارة إلى رزات؟». مهمه سالم قليلا؛ ثمّ قال: «الله أعلم، قد يكون العمّ درويش يريد تخفيف العناء علينا فاكتفى بإبقائنا في مخزن النّارجيل بالسّوق؛ نخزّن ونحصر كمّيّة النّارجيل في الظلّ؟». ردّ عليه متمسخرا: «في الظّلّ يا أبو الظّلّ؟ ههه... كعادتك، على نيّاتك». استغرب من تهكّمه: «لماذا إذن يا أبو المفهوميّة؟». اقترب منه، ونظر إليه بحدّة توحي بوثوقه ممّا سيقوله ثمّ

وشوش: «خوفا من أن نهرب إلى الجبل ياشاطر. وحقّا فكّرتُ في ذلك. ألم يخطر هذا ببالك يا سالم؟ رزات خارج الشّبك. أيُعقل أنّه لم يخطر ببالك؟ كان من الممكن أن نُغافل الحرّاس ونهرب ونصل إلى الجبل خلال ساعة واحدة وننطلق من هناك. إنّهم خافوا صغر سنّنا وسرعتنا في الرّكض لأنهم لن يقدروا على اللّحاق بنا. يا ليتنا فعلنا ولم نتريّث. كنتُ أفكّر في اقتناص الفرصة الأنسب». ضحك سالم واغتصّ كلامه بالضّحك؛ ثمّ أردف: «نهرب، ههه... ههه... هرب، ههه... نهرب. أجُننت؟ ههههه.. لا، ومستغرب من حالي كيف لم أفكّر في الأمر. بأيّ منطق تريدني أن أفكّر في الموضوع؟ نهرب مع كلّ تلك الحراسة؛ حراسة في السّيّارة، وحراسة في المزرعة؟ ثمّ هل نسيت كتيبة الفوج العسكري النّظامي بجوار المزرعة؟ هذا جنون». أجابه عمر مقطّبا: «استهزئ كيفما تشاء، جنون على قولك لكنّه وارد. لو كان جنونا كما تزعم، لما قطعوا دابر هذا الاحتمال. ليس جنونا، نحن في عزّ شبابنا وخفيفو الحركة، بإمكاننا فعلها ويا ليتنا فعلنا. ألم تلاحظ أنّ كلّ العمّال المختارين للقيام بعملنا هناك هم من كبار السّنّ؟ لن تغريهم فكرة الهروب، ولن يقدروا على السّفر بالأساس. هؤلاء ليسوا بحاجة لمغادرة صلالة؛ اعتادوا الوضع برمّته، ورضوا بالحال، لا ينتظرون إلا حسن الخاتمة. أمّا نحن فنسأل الله حسن الحياة والممات». طأطأ سالم رأسه قائلا: «معقول وجائز. بالأساس لم أفكّر حتّى مجرّد تفكير في الأمر، فلم أتوقّع ذلك». تفحّصه بنظره قائلا: «لا تقل لي إنّك تغاضيت فعلا عن

الأمر؟». نفى بقوّة: «أبدًا، بل اشتدّ عزمي على الأمر. فكّرتُ مليًّا، لا للتّراجع. حتّى إنّي جسستُ حال أمّي؛ فوجدتها تقول من نفسها ليتك تلحق بأخويك، لا أريد لك البهدلة والعذاب». فرح عمر بما قاله وتهلّلت أساريره وتبدّدت مخاوفه: «إذن اليوم نحزم كلّ شيء. أراك لاحقا على السّطح. اطلب من خالتي أن تجهّز لي إبريق الشّاي الأخضر المحلّى الّذي أحبّه، اختمرت الأفكار في رأسي، وأريدها أن تنضج اليوم على رائحته المنعشة. نقاش اليوم هامّ ومصيري. نحتاج إلى مثله شايا لننتبه لكلّ تفصيلة». تبسّم سالم قائلا: «لا عليك، لن أبرح مكاني. ستجدني في انتظارك بالبيت، لن أخرج. تعالَ في أسرع وقت، وهاتَ بأفكارك المخمّرة. ههه.. الشّاي سينتظرك أيضا».

توكّآ على مجلس متطرّف في أقصى السّطح، التهيا في بادئ الأمر بإبريق شاي «أبو بطّة الفرط»، تأمّلا الغروب، وتجاذبا أحاديث شتّى، تذكّرا نكت بخيت وأعاداهما بضحكات مفرطة متقطّعة. سمعا باب البيت قد أطبق؛ فعلما أنّ أمّ سالم قد ذهبت لزيارة أختها بالجوار، فالعائلة تجهّز لزواج ابنتها خلال تلك الأيّام. قال عمر: «الأيّام تجري يا سالم وها هو عرس طفول بعد يومين. ومضت أشهر على آخر لقاء لنا. ومضت أشهر ونحن بين حلم وتفكير وتخطيط. إن لم ننفّذ فإنّ كلّ ذلك مجرّد وهم. شغلُنا في الحاضري لمدّة يوم أو يومين في الأسبوع لن يفيدنا. كلّ ما نجمعه في الأسبوع لا يشتري لنا أكثر من كوفيّة مسقطيّة شغل يد أو منديل مطرّز أو «قب ميطان».

أهمّ ما في الأمر أنّنا جمّعنا قليلا من المال، ولو أنّنا سنحتاج إلى المزيد. انظر يا سالم، أنت أخي وصديقي، وستكون رفيق سفري وغربتي الآن إن شاء الله، يجب أن نتّفق على كلّ صغيرة وكبيرة. إلى متى سنواصل على هذه الحال؟ حان وقت الحزم. لا شكّ أنّك سمعت ماذا فعلت الحكومة بأبناء الرّيف من الشّباب. مؤخّرا منعتهم من الرّجوع إلى ديارهم بالجبل خشية أن ينضمّوا إلى الثّوار هناك، ولم يعد يسمح لهم بالدّخول والخروج من بوّابة الشّبك لجلب منتجاتهم والتزوّد باحتياجاتهم، واستغنوا عن جلبة التّأكّد من الهويّة والتّفتيش الدّقيق. اكتفوا بصرف روبيّة هنديّة يومية لكلّ فرد منهم؛ لكنّها لا تسمن ولا تغني من جوع. كيف ستعوّض لهم تلك الرّوبيّة خسائرهم؟ أستغفر الله، سيضطرّون للجلوس هنا، وسينافسوننا في العمل وستقلّ فرصه وسيتأزّم الوضع أكثر ممّا هو عليه الآن». قاطعه سالم: «إي والله للأسف. أتعلم؟ ذلك الشّابّ حسن الّذي يتردّد على بيتنا هو أحد ضحايا هذا الوضع. هو ابن أحد أصدقاء والدي، اضطرّ أبي لتشغيله معه في المزرعة؛ كي يساعده مقابل الغداء والعشاء وما تيسّر ممّا تجود به الأرض. وضعه صعب، دائما حزين، اغترب في بلده. أتى إلى هنا لشراء جزرة؛ ساطور كبير يساعده في قطع الأغصان لإطعام أبقارهم لكنّه احتجز هنا المسكين. غربة داخل بلده، أمّه عجوز، ووالده مسنّ، ولا أحد يقوم بهما ولا بالأبقار. أستغفر اللّه». ضرب عمر الكفّ بالكفّ محوقلا: «لا حول ولا قوّة إلا بالله. وللأسف الأوضاع تزداد سوءًا يومًا بعد يوم. ما ينقصنا هو

المال. ولقد وضعتُ خطّة محكمة، لم يتبقّ غير تنفيذها. انتبه جيّدا لما سأقوله. هي خطّة بسيطة، دقيقة، وواضحة. سنقوم باستئجار أرض زراعيّة على أن يتمّ دفع الإيجار بعدما نجني المحصول. نقوم بحرثها وتهيئتها للزّراعة. نستعين ببعض الأقارب والأصدقاء من الشّباب لتجهيزها بأسرع ما يمكن؛ فلقد حان موسم زراعة الجوح والشّمام. نبيع ما نجنيه، وبهذه الطّريقة نجمّع مبلغا لا بأس به، وإن نقص علينا شيء نستعين بالأهل. وهكذا نكون قد حللنا مشكلة تمويل السّفر إلى الكويت». تحمّس سالم مؤيّدا صديقه وقد انفرجت أسارير وجهه: «أتوقّع أنّ جلّ الأقارب سيساهمون في إعانتنا. بل سيشجّعوننا كلّهم على شقّ الطّريق وإكمال دراستنا والعمل أسوة بكثيرين ممّن سبقونا إلى هناك.

صراحة، أحسنت، أحسنت يا صديقي. فكرتك بديعة، وستختصر علينا وقتا كثيرا. حقّا أنت داهية. فلنبدأ بتنفيذ هذه الخطوة عمليّا من الغد. الله ييسّر لنا الحال يا رب، وستتيسّر بإذن الله تعالى. على بركة الله».

سار كلّ شيء كما يحلو لهما، ساعدهما الجميع، وتغاضت عنهما الحكومة؛ أوّلا لأنّ الحراسة مشدّدة في كلّ مكان، وثانيا ظنّا أنّهما يسعيان للاسترزاق لا غير؛ خصوصا أنّهما اشتغلا في الحاضري بحثا عن المال وكانا ملتزمين بالتّعليمات؛ ثمّ إنّ العمّ درويش أشاد بحسن سيرتهما وسلوكهما في أكثر من محفل. مرّت أربعة أشهر، أينعت ثمار الجوح والشّمّام، وحان وقت قطافها. استأجرا حمارين لحمل بضاعتهما إلى

الماركيت؛ سوق الخضار والسّمك بالحافّة. خيّرا أن يبيعا المنتوج بالجملة ربحا للوقت. فكانا كلّ صباح يقصدان السّوق، يزوّدان بائعات قد اتّفقا معهنّ بالبضاعة، ويساعدانهنّ على افتراش أرضيّة السّوق المغطّاة بالعشيش وتصفيف الحمولة بطريقة جذّابة ومغرية لكلّ شارٍ، ثمّ يفترشان بدورهما مكانا بالسّوق عند المفرق ويبيعان ما زاد عنهما طيلة النّصف الأوّل من النّهار. وبعد العصر يحملان ما تبقّى إلى ساحة غبّ سمحان على شاطئ الحافّة؛ حيث يجتمع هناك باعة اللّحوم والشّواء والفندال والحلويّات كالقشّاط والفطاير، يقومان بتقطيع الثّمار إلى قطع صغيرة بطريقة جميلة متساوية ومشهيّة، ويبيعانها جاهزة، وبهذه الطّريقة يتمكّن الجميع من شرائها صغارا وكبارا. ظلا على نفس الحال طيلة الشّهر والنّصف تقريبا إلى أن انتهى المحصول. دفعا ما عليهما من التزامات. وقد بارك الله لهما فتمكّنا من جمع المبلغ المراد للسّفر.

حان وقت الجدّ، وبدأت عمليّة التّنفيذ الحقيقيّة. اقترح عمر أن يبحثا عن طنبلة (المطّاط الدّاخلي لعجلة السّيّارة)، يجب أن يستعينا به في السّباحة؛ فتيّارات المحيط الهندي قويّة. لكنّ سالم استبعد هذه الفكرة؛ فمن ناحية لا يوجد سيّارات بصلالة غير تلك الّتي بكراج الحكومة، وهذا سيشكّل خطرا ويجذب إليهما الأعين بمجرّد البحث والسّؤال وسينكشف أمرهما قبل أن يقوم، ومن ناحية أخرى لو فكّرا في محاولة اقتنائه بطريقة أو بأخرى فإنّ قيمته مرتفعة جدًّا. حينئذ فكّرا في خطّة بديلة رائجة. أخذا ستّة

حبّات من الكزّاب كبير الحجم؛ فثمرة النّارجيل اليابس هذه لها القدرة على الطّوفان فوق الماء ثلاث حبات منها في كل ناحية وربط ما بينهما بحبال صنعا منها شيئا يشبه الوسادة؛ يرفع رأسيهما والجزء العلوي من الجسم عن الماء قليلا فيتمكّنان من التنفّس. أيضا بإمكانهما وضع الصّدر على الحبال في الوسط فيسترخيان أثناء السّباحة، جهّزا كلّ شيء فوق السّطح بسريّة تامّة، وأجادا إخفاء الأمر، ولم يبوحا لأحد حتّى لأهليهم؛ خشية تسرّب الخبر. وفي آخر اجتماع لهما اقترح عمر أن يلتحق بهما صديقهما جمال فقد اعترضه وأبدى استعداده للسّفر، وقد جهّز نفسه لذلك ماديا، لكنّه لا يعلم لا أين ولا كيف وحالته صعبة خصوصا بعد موت والده. سعِدَ سالم بذلك وتوهّجت أساريره وزاده الاقتراح اطمئنانا؛ فهو من ناحية نعم الرّفيق، ومن ناحية أخرى سبّاح ماهر وابن بحّار يعرف أسرار البحر، وصلب وقت الشّدائد. لم يتبقّ غير إعلام الأهل وأخذ موافقتهم ومباركتهم. تنهّدا وصفّرا مطوّلا؛ فهي أصعب خطوة، لكن يجب أن يخطواها دون تردّد. اتّفقا على أن يعلم كلّ منهما والده وجدّه على أن يتكتّما ولا يخبرا أيًّا من النّساء، لا أمّ ولا أخت. بعد مغادرتهما سيتولّى كلّ من أبي سالم وجدّ عمر مسؤوليّة إبلاغهنّ. خشيا ما ستثيره عاطفتهنّ من بلبلة وولولة فيفتضح أمرهما؛ لكن سيودّعانهنّ بطريقة أخرى. أثار هذا الاتّفاق نوعا من الحزن فخيّمت التّنهيدات على صدريهما، وتلألأت الأعين بالأسى.

انتفض عمر، وهمّ بالرّحيل عندما علا صوت شجار حادّ من الشّارع. ركضا إلى شرفة السّطح ليتبيّنا ماذا يجري، وما راعهما إلا أن رأيا أخا عمر الأصغر وصالح ابن عمّ سالم يتشاجران مع بعض عسكر الحكومة المدنيّين. وكان الأخيرون مزوّدين بأسلحة الكند غير الأوتوماتيكيّة. وقد أشهر أحدهم سلاحه. فزعا، وهرعا سريعا إليهم. صرخ عمر: «ما الذي يجري؟». طمأنه سالم والتفت إلى صالح يستفسره عن ما يحصل. ردّ في هلع: «كنّا راجعين إلى البيت وإذا بهم يصرخون فينا ويأمروننا بأن نرمي أسلحتنا على الأرض. هل ترى سلاحا لدينا؟ إنّنا لم نفهم شيئا». حينئذ صرخ العسكري حامل السّلاح: «ولا كلمة، ضعاه أرضا». تدخّل عمر: «رجاء إنّه أخي. من فضلكم ما الّذي فعله؟ إنّنا لا نرى سلاحا لديهما». ردّ عليه بنبرة حادّة: «جميل. دامك أخاه، أطلب منه أن يضع سلاحه أرضا قبل أن أتهوّر وأدوس على الزّنّاد. نعلم أنّ معهما سلاحًا. سمعنا قرقعة صوته ودويّه من هذه النّاحية، ولم نجد غيرهما». انفعل سالم قائلا: «لا يجوز لكم فعل هذا إنّهما صغيران في السّنّ، ولا سلاح معهما. ألا ترون؟ فتّشوهما لو شئتم». قهقه بأعلى صوته ثمّ صرخ فيه: «لا تتدخّل يا هذا. تبعناهما من بداية المنعطف وألقينا القبض عليهما هنا. قد يكونان تخلّصا ممّا يحملانه. لا أحد يتدخّل. لدينا واجب نتصرّف على غراره. هذا لا يعنيكم، هذه إجراءات أمن، والقانون على الكلّ». تقدّم صالح خطوة، وسحب من خلفه قضيبا حديديّا منثنيا فتراجع الحرّاس إلى الخلف وأشهروا أسلحتهم جميعا

استعدادا للإطلاق، وفزع كلّ من سالم وعمر. فمهمه بصوت عالٍ: «ليس سلاحا؟ هذا ما لحقتمونا من أجله. إنّه مجرّد قطعةحديديّة. إنّها قطع غيار ماكنة ماء المزرعة. أخذناها إلى الحدّاد لتلحيم كسر فيها، والآن عدنا بها. هي ما تصدر صوت القرقعة عندما يحتكّ جانباها ببعضهما البعض خلال المشي والحركة. انظروا». تنفّس الجميع الصّعداء، لكن لم يعترف أيّ منهم بذلك؛ بل نوّه قائدهم: «يجب أن يتنبّه الجميع لتحرّكاتهم. نحن باللّيل، وقد تأخّر الوقت. ألم تسمعوا عن القانون الجديد الّذي صدر مؤخرا؟ يُمنَع التّجوال بعد العشاء لغير الضّرورة. هيّا كلّ إلى منزله». شدّ عمر على يد سالم بقوّة، وهمس: «أسمعت؟ ما الحلّ الآن؟ وصل القانون الجديد لمنع الخروج بعد العشاء». افترق الحشد من حولهم، والكلّ يتأفف ممّا سمعه. وتداخلت الاحتجاجات في السّرّ والتّعليقات السّاخرة: «ولمَ بعد صلاة العشاء؟»، «كانوا يمنعوننا من الصّلاة أيضا»، «والله لولا أنّهم خشيوا أن يقال منعوا المسلمين من إعمار بيوت الله لكانوا فعلوها»، «صحيح، لولا أن خشوا ممّا سيُقال، لجعلوا قانون المنع من المغرب»، «لم يعد يُحتمل هذا العيش»، «أفٍ»، «أستغفر الله»، «لا بدّ أن نعجّل بالخروج من هذا الجنون»، «إنّه القمع بذاته».

كانت هذه الحادثة الدّافع الأساسي حتّى يحظيا بموافقة ودعم الأهل بسهولة فانزاح عن صدريهما أثقل همّ. وفي اليوم الموعود تكاتفت الأيدي وتظافرت الجهود بإشراف كلّ من جدّ عمر وخاله؛ فلقد أمّنوا لهما بداية

المشوار انطلاقا من مزرعته بمنطقة القرض نظرا لمحاذاتها لشاطئ الحافّة. بعد المغرب وما إن بدأ الظّلام بالانسدال اندسوا بين بساتين النّارجيل المؤدّي إلى الشّاطئ ليتيقّنوا من خلوّه ولتأمينه جيّدا، ثمّ التخفي بين جذوع النخيل.

فرضة ظفار والبندر

وجدوا جمال قد سبقهم إلى هناك. رحّبوا به واطمأنّوا أكثر لمرافقته لهما؛ فهو محنّك رغم صغر سنّه. وقفوا على بعد أمتار يراقبونهم ويراقبون تحرّك الأشياء من حولهم. نزلوا الواحد تلو الآخر في الماء وسبحوا إلى العمق إلى أن بلغوا إلى نقطة يصعب فيها تمييزهم عن بقيّة الظّلام أو رؤيتهم من قِبل دوريّات الشّاطئ، ثمّ توجّهوا غربا.

كان اللّيل حالك السّواد، أحسّ ثلاثتهم بخطورة ما أقدموا عليه، لم يكن يفصلهم عن الفناء شيء، كان الغموض يحيط بهم من كلّ مكان، ولا يعلمون ما يخفيه هذا البحر في جوفه وماهيّة المفاجآت الّتي من الممكن أن

يقـدّمها لهـم في أيّ لحظـة. لا يسـمعون إلا قرقعـة الميـاه؛ وهـي تضـرب أجسادهم وتصفع وجوههم. لكنّهم رغم كلّ شيء كانوا صلبي الأبدان، شديدي الشّكيمة يسبحون بمهارة وسلاسة، لم يشعروا بالإعياء؛ فلقد كانوا متعوّدين على كثرة الحركة والنّشاط، ولم تشكّل البداية جهدا يذكر. كانوا يتحرّكون بأجسادهم، والعقل يصوّر شريط أحلام ورديا، يوثّق العزّ الّذي سيحمله المستقبل إلى كلّ واحد منهم. لم يكن يدور بأذهانهم غير أطياف أمل جميل عن الحريّة والسّفر والعلم. كانوا ينشدون في داخلهم حياة جديدة غنيّة بالتّرف، لا يعلمون شيئا عن تفاصيلها، ولا يملكون معلومات عن كيفيّتها، لكنْ أطياف من الأحلام تداعب مخيّلاتهم، تدفعهم إلى الاستمرار الحثيث في السّباحة، تعدهم بمعانقة البصيص الأوّل من الحريّة قريبا من الشّاطئ بعد خور صلالة مباشرة، ولم يعد يفصلهم عنه إلا كيلومترات قليلة. كان الصّمت سيّد الموقف. اعتقد عمر أنّ صمت رفيقيه الرّهيب بسبب ألم الفراق أو الخوف من المجهول؛ فحاول اختراقه ومشاركتهما أحلامه. نادى: «وحّداه، بالغد إن شاء الله تشرق شمس لم نعهدها من قبل. شمس حقيقيّة، شمس الحريّة. شمس بدفء حقيقي». ردّ عليه سالم: «حلمتُ بذلك ألف مرّة في الدّقيقة مع كلّ رفعة يد وحركة رجل. رأيتُ قصورا وبساتينَ، رأيتُ عالما من الأطفال القارئين، رأيتُ غيثا نافعا ورذاذا وقوس قزح، رأيتُ ديارا بلا أبواب وأناسا يرقصون، رأيت خيرا وخيرات». ضحك وقال: «ألم ترَ بقراتنا ومزرعة الجوح؟»، قهقها بقوّة

فنهرهما جمال: «هشش. انظروا إلى بصيص الأضواء، لا توجد إنارة كهربائيّة بصلالة إلا عند قصر الحصن يعني نحن بمحاذاته. يجب أن نحافظ على هدوئنا. الأفضل أن ندخل إلى الأعمق قليلا وإلا فضحتنا كشّافاته السّاطعة على البحر». تأوّها قائلين: «إنّه لاذع، بارد». ضحك جمال: «ههه.. من الطّبيعي أن يكون باردا. العمق يعني ازدياد برودة المياه. تحمّلا. بما أنّنا نوازي قصر الحصن فإنّنا اجتزنا نصف المسافة تقريبا. فكّرا في حلمنا المنشود. البرودة شر لا بدّ منه؛ إلا أنّه أرحم من أن ننكشف مثلا. الحمد لله. الله يسترنا، هيّا شدّا الهمّة والعزم، اقتربنا».

ارتجفت الأنامل، وارتعدت الأسنان، وبدأت العروق تتجمّد. داهمتهم المخاوف؛ كلّ قشعريرة برد يتخيّلونها أحد أشباح هذا المحيط يريد أن يلتهمهم أو يسحبهم إلى ما تحت البحار. لم يعودوا قادرين على التّفكير في غير النّجاة والوصول إلى الجانب الآخر. فجأة توقّفت تخيّلاتهم، وأصابهم الإعياء. أحسّ جمال بخطورة التّكاسل، وكان لا بدّ أن يتّخذ إجراء سريعا حتّى لا تكون العواقب وخيمة، توقّف قليلا ونظر إلى البرّ، ثمّ قال: «يقول لي حدسي بأنّنا تجاوزنا الحصن إلى الغرب. هيّا، فلننحرف ناحية الشّاطئ شمالا حتّى نتجنّب برودة الماء وإلا تجمّدنا». نفّذا ما أمرهما رفيقهما دون مجادلة؛ فهو خبير بالبحر واختاراه قبطانا للرّحلة دون أن يُعلماه. وحقًا ما أشار به؛ سرعان ما بدأ الدّفء ينعش حواسهم من جديد، وأخذت الطّاقة تجري في مجرى الدّم، وعادت الأحلام تزور المخيّلات وتنعش الرّوح في

صمت. إلا أنّ سالم لم يكن بنشاطه الأوّل. لاحظ عمر ذلك فتباطأ، وأخذ يحفّزه ويشاطره ما راوده من أمل في تلك اللّحظة. لكنّه لم يُبدِ تغييرا أو عزما. باتت قلّة حركته ملحوظة بشكل علني ممّا استدعى جمال للتّراجع وتفحّص الأمر بعد أن تقدّمهما بشوط. شجّعه بدوره على التّقدّم؛ لكنّه بالكاد سمع حركة يديه في الماء، وعلم أنّ هناك مشكلة حقيقيّة وانتابه القلق، خشي أن يفقدا صديقهما وشعر بالحزن، لكنّه تكتّم كي لا يبثّ الرّعب في قلب عمر الّذي أخذ يردّد في حيرة: «ما بالك يا سالم؟ هيّا حرّك يديك. تحرّك، لطالما كان الماء لعبتنا المفضّلة. ارمني به. اضربني به كما كنت تفعل سابقا. هيّا يا حبيبي، ما بالك الآن؟ تحرّك يا سالم تحرّك. الحركة تجدّد الرّوح، تحرّك. الحركة تهبك دفئا، تحرّك تحرّك، الحركة تعطيك نشاطا من حيث لا تعلم. قاوم يا رفيقي، هيّا تحرّك». وأخذ يرجّه ويحاول تحريكه عنوة وهو يبكي، ويذكّره بأيّام الجوح، أيّام السّعيديّة، أيّام السّطح، أيّام المخطّطات، أيّام الضّواغي، أيّام الحاضري. لم يعد يميّز بين ملوحة البحر وملوحة دموعه. لم يعد يعرف أيّهما أملح. راودته شهقات عدّة وهو يتخبّط، ينحب ويهزّ صديقه وحبيبه ورفيق طفولته ودربه.

أعاد على سمعه كلّ نكت بخيت وسهيل فكان يضحك ببكاء، وجمال يسترق النّظر إليه في شجن وقلّة حيلة، يريد أن يواسيه ويخفّف عنه ولا يعلم كيف؟ لا يعلم أيشدّ أزره أم يواسي حاله؟ لم يفهم ما الّذي حصل وكيف توقّف عن الحركة فجأة؟ غطّى نحيب عمر تلاطم الأمواج فخاف أن

يُكتَشَف أمرهم، وبات التدخّل أمرا لا بدّ منه. وضع يده على فمه وأسكته قائلا: «أجننت؟ اهدأ وإلا انفضحنا. نحن أمام الموقف، ويجب أن نتحلّى بالصّبر والحكمة». تخبّط عمر، وحاول تمليص فمه من يده لكنّه لم يفلح. أخذ يخضخض سالم بيديه ويرجرجه إلى أن استسلم وهدأ وخيّم الصّمت. سمعا حينئذ همسا يقول: «تعبان، حبال الكزاب شرخت صدري، لم أعد أقدر». فرحا وتنطّطا في الماء حامدين الله: «حمدا لله، حيّ حيّ. الحمد لله أنت بخير، نحن معك، تحمّل اقتربنا». ساعداه؛ كي ينقلب على ظهره. اتّفقا على التقدّم في خطّ واحد معا، ربطا كلّ حبال الكزاب ببعضها البعض تاركين سالم بالمنتصف، وعانقه كلّ منهما بإحدى يديه إلى أن تشابكت أذرعهما، واستمرّا بالسّباحة باليد الأخرى، معتمدين على قوّة الأرجل بالأساس. أصبحت حركتهم بطيئة وثقيلة، وبدأ قلق التأخّر يداهمهم؛ فلو بزغ الفجر قبل أن يصلوا إلى الخور ستكون مصيبة. الخور النّقطة الوحيدة الّتي تعتبر نقطة الأمان؛ فسيّارات الدوريّات لا تتجاوزه خشية أن تتسلّل جماعات من الثّوّار إلى المنطقة وتداهمها. والحقيقة أنّ عمر كان شغله الشّاغل تدهور صحّة سالم؛ فلم يعد يعنيه غير الوصول به في أسرع وقت إلى اليابسة. وكان لا يفكّر إلا في إيجاد حلّ يريحه، ويصبّره به. فجأة فكّ يده من يد جمال، وطلب منه التّوقّف قائلا: «توقّف. هذا لن يجدي. إنّه يتعذّب بيننا. وسنتأخّر. يجب أن تنفصل أنت عنّا، وتساندنا من على الجانب بيديك

بين الفينة والأخرى، وأنا سأربطه بي؛ سيكون هكذا أرحم وأريح له وأسرع».

ترك سالم بين يديه، فكّ الكزّاب، وضغط عليها في الماء ثمّ ألقى ظهره عليها. فكّ رباط صرّة جلديّة صغيرة مشدودة إلى حزام كماره، وأخرج منها بعض بسرات التّمر قائلا بحزم: «يجب أن نأخذ عددا فرديا منها، ونجدّد الطّاقة، هيّا خذ». تناول جمال ما أعطاه إيّاه، ومدّ يده إلى صدر عمر يتحسّسه، وجده مخدوشا، قرّب يده بسرعة إلى أنفه يتشمّمها، ثمّ تذوّقها؛ وكأنّه لا يريد أن يصدّق أمرا ما. اغتصّ بريقه للحظة؛ ثمّ قال بامتعاض: «صدرك ينزف أيضا يا عمر. الله يستر. أخشى من أسماك القرش؛ فهي تشمّ رائحة الدّم من على مسافات بعيدة. يجب أن تستلقي على ظهرك أيضا، وتسبح بتلك الطّريقة. كلّ الظّروف تأخّرنا. أستغفر الله، أخاف أن تتسبّب في هلاكنا».

ردّ عليه عمر بعصبيّة: «الله الحافظ. لا تجلب لنا التّشاؤم الآن. يعني أنت الّذي لم يتأثّر صدرك من احتكاكه بالحبال؟». أجابه في خجل: «بلى، لقد تأثّر، وأحسّ بنيران من الوجع؛ لكن لم تنزف جروح حقيقيّة بعد. لم أقصد شيئا غير اتّخاذ الحيطة». أحسّ عمر بغلاظة موقفه، ونبرة الجفاء الّتي خاطبه بها، وعلم أنّ لا محلّ للنّزاع الآن، ولا يجب أن يسمح لشيطان الغضب بأن يحضر فحاول ملاطفة الجوّ. ضحك عنوة، وقال: «ما شاء الله صدرك حديديّ. صيّاد ابن صيّاد. والنّعم بهكذا رفقة. كيف سيأثّر فيك هذا

وأنت كالبطّ؛ ما تقضيه وسط الماء أكثر من البرّ. ههه.. جمال البطّة. معك حقّ يا بطّة». قهقه جمال وهو يمضغ التّمر، وشعر فعلا بأنّ طاقته تتجدّد. بينما سالم لم يقو على تحريك فمه حتّى بالمضغ؛ فأخذ يمصّها، ويترشّف حلاوتها، ويستلذّها.

أسرع عمر إلى ترتيب الوضع من جديد. أخرج من حزامه مقليميّة (سكّينا صغيرة قابلة للطّيّ)، قطع بها وصلة من الحبل الرّابط بين الكزّاب، فكّك فتلاتها وأوصلها ببعضها البعض؛ حتّى صارت بطول مترين تقريبا. أدار طرفها بصدره، وشدّه تحت إبطه، وشدّ الطّرف الآخر إلى حبل كزاب سالم. تنهّد لرؤيته لا يزال خائر القوى، مستلقيا على ظهره بدون حراك. اقترح على جمال بأن يبقى إلى جانبه، ويدفعه إلى الأمام بقدر ما يمكنه من استطاعة بينما يتولّى هو أمر سحبه. وكانت هذه الفكرة مجدية وأربحتهم وقتا فقطعوا مسافة أخرى لابأس بها، ولم يبق إلا القليل على الوصول إلى الشّاطئ.

بدأت خيوط الشّمس تتمدّد على أمواج البحر بكسل. صاح عمر كي يسمعه من بالخلف: «يبدو أنّنا قد تجاوزنا خور صلالة، الحمد لله. المنطقة شبه آمنة الآن. وأقترح أن نقترب من الشّاطئ، وننزل سالم. وبعد طلوع النّهار يتحرّك إلى أقرب مزرعة من مزارع صلالة على الطّرف الآخر للخور. ستكون المسافة قصيرة إلى هناك. ولأنّه بمفرده سيكون بأمان وبإمكانه التّحرّك خلسة دون أن يفطن به أحد، ولن يلتفت إليه أحد بالنّهار. أخشى أن

يفقد وعيه وسط الماء. كيف سنتصرّف حينئذ؟». أيّده جمال وشاطره الرّأي، لكنّ سالم أشار لهما بالرّفض، وقال بصوت خافت لكن به إصرار لا مقاومة تحدّه: «لا لا. أنا بخير وأستطيع المواصلة. أتريدان التّخلّي عنّي؟ أيعقل يا عمر؟». لم يجدا جوابا، ولا بُدَّ من المحاولة معه فماذا بعد اتّهامهما بهكذا تهمة؟ هما لا ينويان التّخلّي عنه. كما بدؤوا المشوار معا سيكملونه معا. لكن عموما يجب أن يسرع ثلاثتهم بالخروج إلى البرّ. أخذ عمر القرار في نفسه وأصرّ عليه، فهو من يسحب سالم؛ أي أنّ القيادة له بإرشاد من رفيقه ابن البحّار. بدأ يقترب رويدًا من الشّاطئ، ولم يسمع اعتراضا أو احتجاجا؛ فاعتقد أنّ جمال شاطره الموقف في صمت. تقدّم مسافة أخرى، وصار من الواجب مشاورة خبيرهم البحري بصريح العبارة: «هل المكان على الشّاطئ آمن بما فيه الكفاية لنبدأ بالخروج الآن؟». لكنّه لم يسمع ردًا؛ فنادى بصوت أكثر سمعا: «جمال، يا جمال هل نبدأ بالخروج الآن؟ أتعتقد أنّ هذه الجهة آمنة؟». لم يسمع غير صفير سالم؛ الّذي جمع بين الشّخير والأنين. لم يأته رد على نداءاته، ولم يجبه أحد. انقبض صدره فجأة، والتفت بفزع، انتفض. تخبّط في مكانه وهو يصرخ باسمه، لكن لا حياة لمن ينادي. أزاح عنه الحبل الّذي يربطه بسالم. ارتفع فوق الماء، غاص تحته، فتح عينيه بأقصى ما عنده من قوّة، أغمضهما، وفركهما. سبح إلى الخلف، عام حولهم. لكنّ جمال ليس في الجوار، لا بجانب سالم ولا خلفه ولا دون الماء ولا في الجوار، ولا حتّى على امتداد البصر. لطم قليلا،

وحوقل كثيرا. نادى ونادى لكن دون جدوى. حاول البكاء لكنّه لم يقدر. هنالك شيء ما جفّف دموعه بدون علمه. كيف لم ينتبه إلى اختفائه؟ لم يسمع استنجادا ولا صريخا. ما الّذي حصل له، وكيف؟ أيعقل أنّ هذا الصّوت الّذي كان يصدره سالم بسبب أمر رآه ويجهله هو؟ احتار في أمره. أخذ يلتفت يمنة ويسرة بهدوء، ويحاول أن يركّز سمعه علّه يسترق همسة تدلّه لكن لا شيء البتّة. استسلم، وخنع للواقع. بات الأمر مخيفا ومريبا. وراوده سؤال مرعب: ما الذي التهمه؟ لم يكن قد ابتلع ريقه بعد حين قفزت سمكة فوق الماء ثمّ غاصت. لم يستوعب الأمر جيّدا، ولم يكن قد حدّد حجمها بعد، ولا نوعها. كلّ ما أدركه أنّها سمكة ليست بهيّنة، وجمال قد اختفى، وهي موجودة. أحسّ بأنّها النّهاية. هلع من هول ما هو فيه، وكاد قلبه أن ينفطر ويخرج من مكانه. لم يتخيّل أن تكون نهاية كلّ حلم رآه، وكلّ أمل ناشده بإشباع بطن سمكة جائعة. فجأة تعاودت في سمعه جملة «قل لن يصيبكم إلا ما كتب الله لكم» وكأنّ أحدهم قذفها في نفسه قذفا؛ فشهّد، وهلّل، وكبّر. لم يتحرّك من مكانه، استعاد شريط هذه الرّحلة والمخطّطات الّتي أقيمت لأجلها. تذكّر أمّه وأمّ سالم، وأخذ يلوم نفسه: «لم نودّعهما حتّى. أما كان يكفينا البقاء بجانبهما؟ هل هناك ما يعوّضنا عن ابتسامتهما وفرحتهما في هذه الدّنيا؟ ها نحن سنفقد أرواحنا وكلّ شيء، ما الّذي سنخلّفه للأهل؟ الوجع؟ التّعب؟ الألم؟ دموع؟ صبر؟». تمكّن هذه المرّة من البكاء. لكن انقضاض هذه السّمكة عليه قد طال، وألم الخوف منها قد

طال أيضا. توقّف عن النّظر حوله بحثا عنها، بدأ يسبّح بأصابعه ويشهّد بين الفينة والأخرى، ويحوقل إلى أن خَفَتَ اختلاج نبضاته، واطمأنّت نفسه قليلا؛ فخمد، وغفى فوق كزاباته دون أن يشعر بحاله.

لم يحس بأنّه مكث طويلا في استرخائه أو أنّه غرق في نوم عميق حين استفاق على صوت قويّ يشبه الشّخير. فزع، وظنّ أنّه حان الموعد الّذي سيتحوّل فيه إلى لقمة باردة لسمكة خبيثة. قرّر مواجهتها. التفت إلى مصدر الصّوت، ودقّق النّظر؛ ثمّ أسرع إليه فرحا. لم يستوعب ما رأى لكنّه حقيقة. لا يمكن أن يكون شخير جمال سراب. تأكّد بالفعل من أنّه هو؛ وجده نائما في أمان الله على حزمة كزابه، مستلقيا على حبال نخلها. أمسكه من كتفه، خضّه إلى أن أفاقه، وأخذ يصفّق على الماء: «يالله، يالله، ما أرحمك يا رب! يا رحمن يا رحيم. يا من حفظت عبدك ذا النّون في ظلمات ثلاث، لا إله إلا أنت سبحانك إنّي كنت من الظّالمين. الحمد لله يا رب العالمين». نظر إليه صديقه في استغراب، لكنّه استوعب أنّ هناك خطبا ما، قال له: «لا تخف أنا بخير. لكن ما الّذي حدث لكما؟ بحثتُ عنكما إلى أنهكني التّعب. ما بالي لا أرى سالم معك؟ أين هو يا عمر؟». التفت حوله في دهشة، لم يجده. تلهّى بالبحث، وغفل عنه. أخذ يصفع نفسه، ويقول: «كيف فعلتُ هذا؟ أين هو الآن؟ فصلتُه عنّي كي أبحث عنك، ولم أدرِ بأنّني سأبتعد عنه، ولم أكن أعلم أنّني سأغفو من يأسي. كان يجب أن أكون يقظا. المسكين كان خائر القوى. يا الله. عندما افتقدتك، كنّا بقرب الشّاطئ، وكنتُ أسألك إذا ما كان

البرّ آمنا أم لا، والآن لا يابسة أمامنا، لقد عدنا إلى الأعماق من جديد ولا أعلم كيف». تنفّس جمال بعمق، واسترجع قواه ثمّ قال بحكمة: «تيّارات البحر قويّة، تجذب بسرعة إلى الدّاخل. لكن لا تخف، هدّئ من روعك. حدّد لي بأيّ اتّجاه تركته. ألم تقل لي إنّك حين انفصلت عنه قد شارفت على البرّ، قد يكون سبح إلى الخارج أو قد تكون الأمواج قذفته خارجا. فأخبرني أيّ ناحية تركته؟». تنهّد بأعلى صوته، ولطم: «وهذه المصيبة الآن؛ أنا لا أدري أين تركته، ولا أيّ برّ اتّجهت إليه. وامصيبتاه. إنّا لله وإنّا إليه راجعون». أشار إليه رفيقه بيديه كي يهدأ؛ ثمّ قال: «لا تحزن يا أخي، ولا تفقد جأشك وثقتك بالله. ليست هناك أيّ مشكلة في معرفة وجهة البرّ». ورفع يده فوق الماء، تحسّس تيّار الهواء؛ ثمّ أشار بيده قائلا: «اليابسة من هذه النّاحية. هذا الموسم يكون هواؤه جنوبيا والرّياح تأتي من وسط البحر. نحن الآن وسط البحر؛ أي جنوب صلالة، إذن البرّ مقابلها شمالا. ها قد حُلّ اللّغز».

تحرّكا في هلع، وارتبطا ببعضهما البعض؛ فلم يكن أحدهما يزيل نظره عن الآخر. لاح لهما الشّاطئ من بعيد. اشرأبّت الأعناق بحثا عن صديقهما، وكانا يأملان برؤيته يلوّح لهما. لكن لم يشاهدا غير الزّرقة، ولون الجفاف يلوّح لهما من بعيد مرحّبا. همس جمال بيأس: «أين هو الآن؟ البرّ ووجدناه، وها هو ينادينا لنخرج بسلام. أين سالم؟». أجابه عمر في حيرة: «الله أعلم. لقد تركته خلفي؛ يعني ناحية الغرب، أليس كذلك؟». أيّده

جمال: «أها. صدقت. إن كان كذلك فيجب أن نقطع مسافة إلى هناك علّنا نجده، قل يا رب».

استمرّا في السّباحة غربا. قطعا شوطا كبيرا، ولم يكلّا من المناداة بإسمه، ولكن دون جدوى. لم يعد عمر قادرا على فتح عينيه، تقاعست حركة جفونه، قاوم التهابهما، واكتفى بفركهما بين الفينة والأخرى إلى أن احمرّتا؛ فاستأذن بإغماضهما فترة خمس دقائق لا أكثر. ضغط صديقه على ساعده وكأنّه يدلّكه ويحفّزه؛ ثمّ اقترح: «لقد تعبت كثيرا يا عمر. تمكّن منك الإرهاق، وبلغ الإعياء فيك درجة شديدة. ها نحن أصبحنا قرب عوقد تقريبا، والشّاطئ آمن تماما، ما رأيك أن تخرج؟ سأستمرّ في السّباحة غربا لوحدي؛ علّني أعثر عليه في طريقي. أشعر بأنّي متماسك القوى، وعموما أنا أقلّ إرهاقا منك. ثمّ إنّ الفجر على وشك الطّلوع. سأخرج إلى اليابسة مع بزوغ الضّوء بينما تتّجه أنت ناحيتي غربا سيرا على الأقدام. بمجرّد خروجك ستتحسّن عيناك؛ فالالتهاب ليس إلا بسبب ملح البحر، وستسترجع قواك قليلا عندما تلامس الأرض ويلفحك الهواء الجافّ. حينئذ ستتمكّن من مساعدتي في البحث عن سالم. سأخبرك كيف. طوال تقدّمك لا تجعل نظرك يفارق البحر؛ علّك ترى أيّ أثر له. وبهذه الطّريقة يكون بحثنا أسرع وأنجع. وعندما نلتقي سنكون ثلاثتنا مع بعضنا بعضًا بإذن الله، وسنواصل سيرنا إلى الجبل لنحظى ببعض الرّاحة هناك».

طلعت الشّمس، وكشّرت عن قيظها. لفحت كلّ شيء اعترضها بحرّها. تكفّلت بتجفيف كلّ قطرة بلّلتهما؛ لكنّها لم تقدر على تجفيف بلل

روحيهما. مرّت الدّقائق ساعة تتلو أخرى. التقيا كما اتّفقا. أتى كلّ منهما من طرف، يحثّان ساقيهما، يتفحّص كلّ واحد مطلع الثّاني. لكن لا أثر لسالم؛ لا هو مع هذا ولا هو مع ذاك. تعانقا، وانهارا باكيين. لكنّ حرقة عمر كانت أكبر؛ فهو توأم روحه وشريك دربه منذ الصّغر. تملّكته شهقات متتالية وكأنّ روحه تحتضر، ضمّه جمال إلى صدره بقوّة ورجّه كي يصحو من أزمته قائلا: «وحّد الله يا عمر. تمالك نفسك. علّه بخير، يجب أن نستودعه الله. يصعب عليّ قول الآتي لكن يجب أن أقوله. اسمع، لا حلّ لنا غير مواصلة السّير وترك أمره إلى الله. إن كان حيا؛ فالبحر يخرج أيّ جسم طائف إلى البرّ، وهو في حفظ الله وعنايته. وإن كان قد توفّاه الله؛ فهو بمعيّته. يجب أن نكون مؤمنين بما كتبه الله. لا اعتراض على حكمه. أتعلم؟ لو أنّ سالم معنا الآن لطلب منّا مواصلة السّير. أنت تعلم مدى حكمته. وحقيقة لا جدوى في أيّ شيء غير ذلك نقوم به الآن. فوحّد الله، ولننطلق». بلع ريقه، جمع قواه، نهض محوقلا: «ونعم بالله، ولا حول ولا قوّة إلا بالله. صدقت، هيّا بنا. استودعناك الله يا سالم. أشمّ رائحتك في الجوار. أعلم أنّك بخير، وسأنتظر رؤياك في أيّ لحظة. حفظك الله ورعاك يا توأم روحي».

لملما ما تبقّى لهما من طاقة، وقصدا الجبل. مكث عمر هناك؛ فلم يعد له رغبة في الابتعاد أكثر، ولم يعد يشتهي المغامرة، وكان على أمل بعودة سالم، ثمّ إنّ هواء الجنوب من مكانه هذا سيحمل له رائحة أمّه كلّما شعر بالشّوق، وسيستطيع الاطمئان بما يصل إليه من أخبارها وأخبار خالته أمّ

سالم. بينما واصل جمال مشواره كما خطّط له؛ ذهب مع قافلة الثّوّار إلى اليمن ومنها إلى الكويت.

تتالت الأيّام، وصار وقعها ثقيلا. يبيت عمر على أمل إيجاد رفيقه، وتنقضي السّاعات، وينطفئ كلّ أمل مع غروب الشّمس. بعث خبرا إلى أهله بفقدانه. انتظر سماع ما يؤلمه عن حال عائلته؛ لكنّ الله أنزل عليهم صبرا كبيرا. عندما تكون المصيبة عامّة فإنّ وقعها يكون أقلّ حدّة، ويتقبّله النّاس وكأنّه أمر عادي. تعايشت صلالة مع واقع الهروب حالها حال أيّ مدينة وقرية في عمان، تقبّل أهلها الأمر ببسالة؛ كلّما همّ أحدهم بالهروب تنهّدوا واستودعوه الله وسكتوا، ثمّ يباشرون حياتهم بدونه. كان السّفر يخطف ضحاياه من معظم البيوت بتنامٍ وازدياد وتيرة يوم بعد يوم. كادت أن تصبح خاوية على عروشها، وبات الفقدان والهجر أمرا لازما روتينيا للعيش. تزايد عدد الثّكالى والأرامل واليتامى، وتنامت دعواتهم، وروت دموعهم الأرض إلى أن حنّت السّماء عليهم، واستجاب القدر.

قبع عمر تحت شجرة ميطان عالية يتأمّل أبقار العمّ محاد؛ ذلك الرّجل الطّيّب الّذي آواه. شدّ انتباهه البقرة الأمّ الّتي فقدت ابنها بالأمس؛ فلقد ذبحوه كعقيرة. رآها تأكل، وترعى وكأنّ أمرا لم يكن. تصرّفاتها على غير العادة، بها القليل من الحزن لكنّ الحياة تستمرّ. نظر إلى النّمل الكبير، رفع رأسه إلى السّماء، تأمّل الطّيور. هؤلاء المخلوقات حياتهم دائما في خطر؛ إلا أنّهم يقاومون ويتمسّكون بالعيش ودائمو البحث عن الحريّة. يجب أن يواصل رحلته ويصل إلى مراده. لم يكن هذا حلمه فقط؛ بل كان حلم سالم

أيضا. أخذ القرار بتحقيق حلمهما. يجب أن يثابر، ويثور كباقي من ثار لاسترجاع حقّ عمان، ونزع أغلال القمع عمّن يحبّهم. أسرع إلى الشّيخ محاد يخبره بما وصل إليه من قرار حازم، وأنّه سيغادرهم في الصّباح الباكر لمواصلة المشوار. وجدهم في تهليل، وفرح ومرج. لم يفهم في بادئ الأمر ما الّذي يحصل. اقترب من العمّ محاد، أسرّه بما ينوي. فضحك، ربّت عليه، ضمّه، وعانقه بقوّة، قال له بعينين مغرورقتين بدموع الفرح: «ليس هناك داع لذلك؛ بزغ فجر عمان بعد ليل طويل. تنادت عمان ببزوغ فجرها الجديد على يد ابنها البارّ وأوّل الثّائرين بها».

ظلّ عمر بين تصديق وتكذيب للخبر. حلم بشاي على السّطح، لم ينم، لكنّه حلم بأنّه عاد وعانق الجميع، ولقي سالم ينتظره حيًّا يرزق. لكن كلّما رأى أملا خاف بأن يكون مجرّد وهم. في الغد، هلّ أبرك يوم من أيّام 23 يوليو من سنة 1970م. أضيئت عمان بنور دافئ ينشر الحبّ في كلّ مكان، يفعم الحياة بالأمل. أطلق قابوس حقيقة صادحة في كافّة الأرجاء، ولوّح بعمان كالبرق من أقصاها إلى أقصاها. انتعشت النّفوس قبل الأجساد

بكلمات نطق سامٍ: «عفا الله عمّا سلف. هلمّوا بنا نبنِها من جديد. سأبذل قصارى جهدي لتعويض ما فاتها. سألحقها بركاب العصر والدّول المتقدّمة بأسرع ما يمكن. سأربط حاضرها المشرق الزّاهر بإذن الله بماضيها التّليد». سجد عمر، حمد وهلّل، رقص وسجد وكبّر وبكى إلى قيام اللّيل. وضع خططا جديدة في أرضه، وكان متأكّدا هذه المرّة من أنّها لن تخيب ما دام قابوس ذلك الشّابّ المغوار سندهم.

عاد كلّ من عمر وجمال في قافلة أوّل العائدين إلى الوطن والدّيار. وذبلت واندثرت كلمة الهاربين إلى غير رجعة من قاموسهما، وقاموس شعب عمان لفترة طويلة، ولم تعد تذكر ككلمة على الألسن وكأنّها كلمة نحس يريد الجميع إسقاطها من الذّاكرة، وحلت محلها كلمة «العائدون» حتى اكتمل بعد فترة وجيزة عودة الجميع إلى حضن الوطن واندثرت بدورها كلمة «العائدون».

كوريا موريا

جزر الحلانيات هي عبارة عن خمس جزر عمانية صغيرة تقبع في بحر العرب، على بعد 40 كيلومترا من نيابة الشويمية في ولاية شليم والشويمية وجزر الحلانيات بمحافظة ظفار.

تقدر مساحة هذه الجزر الإجمالية بحوالي 45 كم^2، أكبرها وتتوسطها جزيرة الحلانية وهي الوحيدة المأهولة بالسكان، ويوجد بها مياه عذبة وتقدر مساحتها بحوالي 25 كم^2، وهناك أربع جزر أخرى صغيرة تحيط بها، اثنتان إلى الشرق واثنتان إلى الغرب من جزيرة الحاسكية نسبة لقربها من نيابة حاسك التابعة لولاية سدح، إذ تبعد عنها 51 كم، ثم جزيرة القبلية لاتجاهها ناحية القبلة، وجزيرة جزرعوت أو جارودة وتسمى محليا جزيرة شناص، وجزيرة السودة وتلي الحلاني في الأهمية، وتعتبر ملجأ للطيور المهاجرة، إذ تلجأ إليها للبيض والتفقيس؛ لذا اشتهرت بأغنى وأجود أنواع سماد الطيور في العالم (سماد الجوانو)، ويوجد بها الفسفور أيضا، ولم

يستغل إلى الآن للأسف، علما بأن أحد المستثمرين الصينين قديما زار الجزيرة بعد أن سمع عن وجوده محاولا الاستثمار فيه واستغلاله.

إحدى هذه الجزر غير الماهولة بها شاطئ رملي جميل ناصع البياض، شاهدناه من طائرة الهيلوكبتر التي أقلتنا إلى الجزيرة الأم على ارتفاع منخفض، وهذه الجزيرة تتمتع بأفضل المقومات لإقامة منتجع سياحي عليها. وقد أخبرنا أهلها بأن بعض البواخر السياحية العابرة العملاقة كانت تتوقف قبالتها لساعات وتنزل بعض ركابها للتصوير.

أهديت هذه الجزر من قبل السلطان سعيد بن سلطان إلى بريطانيا عام 1854م، بعد أن طلبت الأخيرة شراءها من عمان، وعرضت مبلغا مجزيا بمقاييس تلك المرحلة، نظرا لحاجتها الماسة إليها لتكون موقع ربط بين مستعمراتها (بومباي وعدن). وفي إطار من العلاقات الودية بين البلدين والتعاون القائم بينهما تم إهداؤها من السلطان بدون مقابل.

ظلت هذه الجزر تحت التبعية البريطانية لحوالي 113 عامًا إلى أن أعادتها الملكة إلى حضنها العماني عام 1967 في عهد السلطان سعيد بن تيمور بعد خروجها من الهند وعدن.

في عام 1926 اتضح من إحصاء سكاني للجزيرة أن عدد سكانها كان 50 نسمة منهم 35 من الذكور و15 من الإناث.

كانت الجزر منذ 1854 تحت الإدارة البريطانية في بومباي حتى العام 1931، حين تم نقل مسؤوليتها إلى رئاسة عدن. وفي عام 1963 نقلت

المسؤولية للمقيم السياسي الإنجليزي في البحرين، حتى تمت إعادتها لعمان في عام 1967م.

من المفارقات أن اسم كوريا يطلق أيضا على دولة آسيوية (شبه جزيرة) تقع في منطقة اسمها سابقا إقليم الهان، انقسمت بعد ذلك إلى دولتين هما كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية. لذا يتبادر السؤال المشروع وهو: هل مسمى جزر كوريا موريا السابق له علاقة بهذه التسمية؟

من ناحية أخرى يلاحظ أن كلمة الموريا لغويا تعني البحر المضطرب، ومعروف اضطراب الموج حول هذه الجزر، وبالذات في فصل الخريف في ظفار إذ يستحيل الاقتراب من أرض الجزيرة إلا بواسطة السفن الكبيرة، وهو لا يخلو أيضا من مخاطر الارتطام بالصخور المرتفعة وسط البحر المحيط بها، وقد تعرضت عدة سفن للغرق في المنطقة، ولها قصص وحكايات معروفة.

توجد في بعض هذه الجزر آثار وقبور لفترة ما قبل الإسلام، كما عُثر على كميات من الأسلحة القديمة لم تعد صالحة للاستخدام. وقد ذكر الرحالة ابن بطوطة في كتابه «رحلة النظار» أنهم في رحلة رجوعهم إلى كيرلا بالهند من صلالة قبل سبعمائة عام تقريبا من الآن، نزلوا بها فلم يجدوا فيها سوى شخص واحد لا يوجد لديه من متاع الدنيا سوى ثيابه وإبريق، ويبدو أنه متصوف. وقد عرضوا عليه أن يأتي معهم ليوصلوه إلى أي بقعه يشاء إلا أنه اعتذر لهم وظل بها.

أطلق عليها اسمها الحالي (الحلانيات) في عصر النهضة المباركة، ويتناقل بعض أهلها أن الحلانيات هو اسمها الأقدم قبل كوريا موريا كما تناقلوه عن أجدادهم، وهذا يقبله المنطق لأن اسم «كوريا موريا» شاذ في ظفار.

في العام 1978 التحقت بالعمل بإدارة شؤون الموظفين بمكتب والي ظفار (سابقا)، حينها كنت بالصف الأول ثانوي (العاشر حاليا)، بعد أن حُوّلت من الدراسة النظامية صباحا إلى الفترة المسائية، وأوفدت بعدها في دورة تدريب عملي إلى ديوان شؤون الموظفين (سابقا) في مسقط، للتدريب على كيفية تعبئة استمارة (آر دي 17) التي تم اعتمادها استمارة بيانات لكل موظفي الخدمة المدنية.

جزيرة السودة أو الحاسكية

بعد استيفائنا لتعبئة هذه الاستمارة لكافة موظفي مكتب الوالي بصلالة والنيابات التابعة، أُرسلنا في مهمة لجزر الحلانيات لاستيفاء بيانات الموظفين هناك، كان برفقتي من صلالة فى رحلة العمل هذه كلٌّ من الزملاء الأعزاء من شرطة عمان السلطانية: الرائد عامر قطن، والنقيب علي سهيل المعشني (أبو صادق)، رحمة الله عليهم أجمعين.

هبطت بنا المروحية أولا في في حاسك لإنزال بعض المؤن هناك، ثم حلقت بنا جنوبا فوق سطح البحر إلى الجزيرة، وقد كان هذا ديدن طائرات سلاح الجو السلطاني حينها لتقديم خدماتها المدنية إلى المناطق البعيدة والنائية، وأهم هذه الخدمات ما كان يعرف بالطبيب الطائر.

هبطت المروحية على مقربة من المنطقة السكنية بالقرب من مكتب نائب الوالي. استقبلنا النائب الشيخ عبدالعزيز الشحري عند باب الطائرة فقد كانوا يعرفون بوصولنا عن طريق جهاز اللاسلكي (البرقية) الخاص بالمكتب، وهو وسيلة الاتصال الوحيدة بصلالة.

يسكن الشيخ عبدالعزيز وعائلته بالدور الأرضي، وجهز الدور الأول كمكتب، بعد واجب الضيافة بدأنا تعبئة الاستمارات وأخذ البصمات لحوالي ستين شخصا هم كل الذكور البالغين من أبناء الجزيرة، وأغلبيتهم عُيّنوا بوظيفة حارس، ويمارسون جميعهم مهنة صيد الأسماك، وهي المهنة الوحيدة التي يمارسونها وتوارثوها عن أجدادهم. وقد وفرت لهم الدولة

ثلاجات لتخزين الأسماك، وكانت شركة الأسماك العمانية تشتريها منهم، إذ تم إنشاء رصيف بحري صغير لرسو السفن الصغيرة.

بعد إنجازنا لمهمتنا وتناول وجبة الغداء مما لذ وطاب وتنوع من الأسماك، خصوصا الصفيلح ذا الحجم الكبير قليل الوجود على شواطئ مرباط والمناطق الشرقية المجاورة لها، تم اصطحابنا في جولة بسيارة النائب، اللاندروفر جيب الجديدة التي أُحضرت للجزيرة مؤخرا بعد أن تقادمت الأولى وليس سواها. مررنا بمنطقة الشريط الساحلي الذي يُعَد أكثر أراضي الجزيرة استواء واتساعا، وبه بيوت السكان والمسجد والمدرسة والعيادة ومولد كهربائي ومدرج صغير لطائرات سلاح الجو الصغيرة.

الجو يكون منعشا مشمسا بدرجة حرارة معتدلة جدا في سواحل ظفار وصلالة عموما في موسم الصرب، إلا أنه في الجزيرة في منتهى الانتعاش، فقد كنا في مكتب النائب والهواء المنعش الذي يأتيك من النوافذ لا يتجاوز درجة 25 مئوية، مصدره النافذة وليس جهاز تكييف ماركة جنرال. شدنا بالفعل هذا الجو المنعش فتحدثنا فيه مع الشيخ الذي ابتسم وهو يروي طرفة عن ذلك، فقد زارهم الشيخ بريك بن حمود الغافري والي ظفار حينها، وبينما كانوا مندمجين في الحديث، فجأة التفت الوالي إلى الشيخ عبدالعزيز طالبا منه إطفاء المكيف لشعورهم بالبرودة، أجابه الشيخ عبدالعزيز لا يمكنني إطفاؤه، استهجن الوالي رد الشيخ الذي استرسل

قائلا: «يا شيخ أبو أحمد هذا هواء رباني فلا يوجد عندنا بالجزيرة كلها أي جهاز تكييف». ابتسم الوالي وقال: «أنت إذن أسعد نائب والي حظًّا في عمان كلها».

منظر الغنم الوحشية على قمم المرتفعات لا تخطئه العين، إلا أنه على مسافات بعيدة ووعرة، وغالبا لا ينزل من المرتفعات إلا في ما ندر لتوحشه، ولا يمكن اصطياده بإطلاق النار عليه، لأنه إذا سمع دوي صوت الإطلاق يقفز فزعا ويسقط بعضه إلى البحر، والطريقة الوحيدة لاصطياده هي مفاجأته في الوديان والإمساك به بالأيدي ليصبح غنيمة دسمة لهم.

كان قائد المروحية قد سألنا عن المدة التي ستستغرقها مهمتنا، وعندما علم أنها لن تكون أقل من ست إلى سبع ساعات قال: «قد لا تكون الفرصة مواتية لنا للعودة إلى الجزيرة اليوم، وعليكم المبيت إلى الغد، فهو الموعد الأسبوعي لوصول طائرة (السكاي فان) الأسبوعي إلى الجزيرة إلا للحالات الطارئة.

بعد أن صلينا العصر اقترح علينا الشيخ «عوفيت» أخو الشيخ عبدالعزيز ومساعده في النيابة أن نذهب في جولة بحرية بالقارب حول جزيرة الحلانية، رحبنا بذلك واعتذر زميلنا علي وذهبت مع عامر برفقة اثنين من شباب الجزيرة.

الطريق من المنطقة السكنية إلى البحر مستوٍ مع بعض كتل صخرية صغيرة متفرقة، وعلى يمين الرصيف البحري الصغير شاطئ رملي أبيض

جميل ومكان يصف فيه الصيادون قواربهم. أما تفريغ حمولاتهم الوفيرة من الصيد فيكون بملازمة الرصيف حيث ثلاجة التجميد بقربه، وعلى شمال الرصيف منطقة ولا أروع حيث، يتناوب على امتدادها الرمل الأبيض الناعم، وكتل صخرية صغيرة متفرقة، كما يوجد بعض هذه الصخور تحت الماء. ويمتاز البحر هناك بقلة عمقه قرب الشاطئ، بحيث لا يتجاوز المتر إلى المترين. ووضوح الرؤية يمكنك من خلاله مشاهدة أسماك القرش تتحرك بوضوح، ورغم ما يسببه رؤيتها من رعب إلا أنهم يقولون إن معظمها غير مؤذٍ. وطبعا لم نقتنع بكلامهم فقد يكون مسلكها هذا معهم من باب العشرة، وهذا ما لا ينطبق علينا. وأعتقد أنه يستحيل إقناع أحدٍ بذلك من خارج الجزيرة.

ركبنا قارب الصيد الذي اتجه بنا يمينا بمحاذاة الجزيرة، البحر هادئ جدا في هذا الموسم بالذات في الجانب الشرقي من الجزيرة، عدا مويجات صغيرة ترتطم بما برز من حواف الجبل، وتتسلل بهدوء في ما غار فيه على شكل كهوف نحتتها عوامل الطبيعة مع الزمن. وصلنا بمحاذاة (الخيصة)، وهي شاطئ رملي أبيض بين نتوئين جبليين وتشكل مذرى طبيعيا، كنا قد رايناها من الشاطئ. هذه الخيصة كانت في الستينات محطة عبور اتخذتها القوات البريطانية أثناء خروجها السريع من عدن بعد جلائهم منها، فكانت السفن العسكرية الصغيرة والمتوسطة تنقلهم سريعا إلى هناك حتى تأتي سفن أكبر لنقلهم. وقد كتب بعضهم ذكريات ورسومات على جانبي

النتوئين الجبليين. ومن المفارقات أن إذاعة عدن التي كانت تخصص في بداية السبعينات فترة بث يومي لما يسمى «ثورة تحرير عمان والخليج العربي» التي كانت عدن مقرا للجنتها المركزية، تتداخل أحيانا على جهاز اللاسلكي (البرقية) الخاصة بمكتب نائب الوالي بالجزيرة، ويُسمعونهم كلمات من قبيل أنتم تتبعون عدن، وغيرها. وكانت السلطات في السلطنة قد نبهت عليهم في الجزيرة بعدم الرد عليهم وإهمالهم، وهذه هي الحكمة والسياسة العمانية منذ بدايات النهضة المباركة، أن لا تعير الترهات والحماقات بالا أو اهتمامًا.

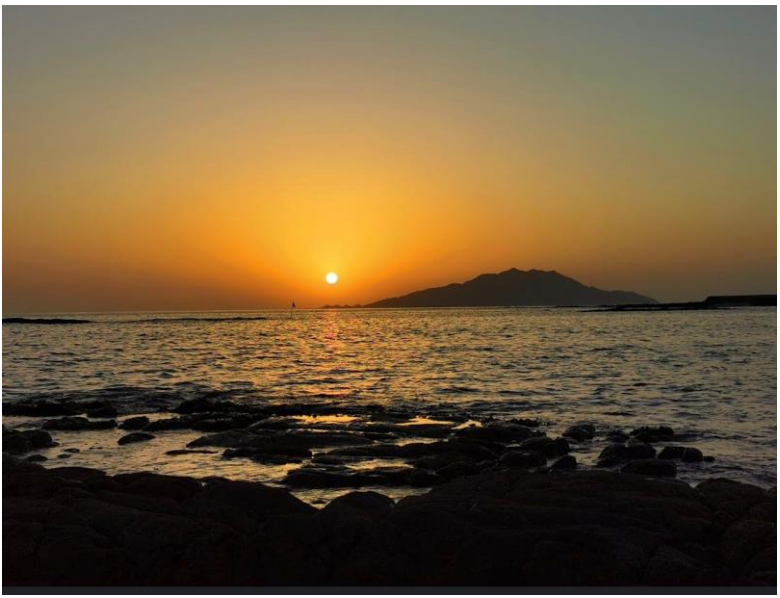

جزر الحلانيات (كوريا موريا سابقا)

تحرك بنا القارب إلى حيث (خيصة) شواطئ رملية كبيرة حدثونا عنها. وبالفعل كانت تسلب الألباب، فمساحتها ليست بالقليلة طولا، برغم أن عرض الشاطئ من الماء إلى الجبل ليس كبيرا، وتحيط بها الجبال على شكل هلال، وبحرها معتم يوحي بعمق غزير. يلفها الهدوء المكتسي مهابة وجلالا، ومناظر الحيتان الضخمة؛ لا يكاد يختفي أحدها وسط الماء بعد أن يثير زوبعة نافورة من المياه على سطح الماء حتى يظهر آخر أو أكثر، منظر يخلب الألباب ويحرك في النفس مشاعر لا تنتهي.

رجعنا إلى حيث انطلقنا قبل أن يحل الظلام، وهناك على بعد أمتار قليلة من الرصيف البحري أوقف الشباب القارب وجهزوا لنا خيوط الصيد. وعن الصيد في الجزيرة يعجز التعبير، فقد كان في نهاية كل خيط ثلاث أو أربع سنارات، وفور أن ترميه تحت القارب تشعر بالأسماك تنهشه لتعلق به، حتى إننا نحن أصبحنا نسحب في كل مرة سمكة أو أكثر. وفي غضون ساعتين امتلأت الحيزات المخصصة للسمك في القارب بالكامل، بالطبع كان لمرافقينا النصيب الأكبر، وأصبحت لي حصيلة من الصيد لا بأس بها كوني ترعرعت على بحر الحافة أيضا. زميلي عامر كان له من الصيد نصيب، وهو لأول مره يصيد في حياته، فهو ابن ريف وجبال.

فى المساء قال لنا الشيخ عبدالعزيز: «خالاتكم تحبكم مثلما تقولون فى صلالة»، قلنا له: خير يا شيخ، قال: اليوم سقطت غنمة جبلية وكُسرت رجلها، فأمسك بها الأولاد وهي عشاؤكم اليوم. قلنا لا شك حب خالاتنا

كبير لنحظى بلحم غنم الجزيرة الذي نسمع عنه ولم نره أو نذق طعمه. وطلبنا منهم رؤيته قبل الذبح، كان يشبه الغنم الظفاري ومذاقه لذيذ، إلا أن لحمه صلب قليلا. سألناه عن قصة هذه الاغنام وتوحشها، قال: هذا سؤال يتكرر علينا دائما ولا نعرف له جوابا محددا، لكنها موجودة منذ زمن أجدادنا. أعتقد أنهم جلبوها فى مرحلة ما من سدح أو حاسك، وتاهت في الجبل وتوحشت وتكاثرت هناك.

بعد تناول العشاء، أوقد الشباب النار لتشعرنا ببعض الدفء، ووضع عليها إبريق كبير للشاي. وقد لاحظنا شغفهم بالشاي، وهذا أيضا له قصة في الجزيرة كما لكل شيء قصة، فقد جنحت إحدى السفن وقذف البحر ببعض صناديقها الخشبية، فوقعت بين يدي سكان الجزيرة، وطبعا كان القصد من هذه الغنيمة هو الصندوق الخشبي ذاته، فله ألف حاجة وحاجة لديهم في جزيرة وسط بحر محيط. وعند فتحهم للصندوق اكتشفوا هذه المادة سوداء اللون بداخلها، فتخلص الرجال منها، إلا أن امرأة حصيفة بعد أن شمت نكهة الشاي الذكية قادها حدسها إلى أن له فوائد لا شك دوائية أو غذائية، فغلت بعضا منه في الماء وذاقته، وأذاقت البقية وانتشر استعماله بينهم.

على إبريق الشاي الكبير بدأت سوالف السمر، وقد كان لها شجون بين الطرفين. كان بالجزيرة عدد قليل جدا من الشيوخ، أحدهم إمام المسجد، وعددهم جميعا مع نسائهم وأطفالهم في حدود المئتين حينها. الشيخ عبدالعزيز، أبو فيصل، لطيف المعشر ومحدث لبق، حديثه لا يمل ولديه

الكثير ليرويه، سواء عن الجزيرة وأحداثها أو عن سفراته مع والده إلى إفريقيا وغيرها، وإخوانه الستة كذلك وبعض الشباب من العائلة الذين كانوا يتسابقون لخدمتنا وإبريق الشاي الجمري الضخم يتوسطنا. للأسف الليل لم يكن قمريا ولكن النجوم قامت بالتعويض وأضفت على المكان سكينة وشاعرية لو كنت أمتلك أدنى قريحة شعرية لقلت معلقة فى وصف تلك الليلة الاستثنائية بحق، ببيئتها وتضاريس طبيعتها الجميلة، وتلك الوجوه السمر الطيبة لأبنائها، التي تشع منها طيبة دافئة تشكل حاضنة لمخاض شعري وأدبي. تمنيت فعلا أن لا تأتي الطائرة إلا بعد أسبوع لأُشبع متعتي بالبقاء في الجزيرة.

لاحظنا بعد تجهيز الشاي حركة من قِبل عدد من الشباب، حملوا بنادقهم وتعبأت ترامسهم بالشاهي (كما ما زالوا مصرين على تسميته) من الإبريق الكبير، الذى بدوره أصر على أن لا ينقطع إدراره منه، تواكبا مع كرم أصحابه، وودعونا على أمل اللقاء قبل سفرنا. قلنا: إلى أين؟ قال الشيخ: سيقومون بواجب الحراسة، فقلنا: أي حراسة يا شيخ؟! نحن في وسط المحيط، من سيأتي إليكم هنا؟ قال: إنه الواجب وأمانة الوطن، وهذا ما نقوم به كل يوم، يذهب عدد من الشباب إلى القمة للحراسة والمراقبة؛ سبحان الله الاحتياط واجب.

قلنا: نعم الاحتياط واجب يا شيخ، لكن ما تقومون به يتجاوز ذلك؛ إنه مشقة من غير داعٍ لها، وهل طلب أحد منكم ذلك رسميًّا؟ قال: لا، قلنا: لو الجهات المختصة رأت لذلك داعيا فلن يعيقها وضع حامية ولو لمجرد

الربط والاتصال الأمني، وإذا كان لا بد فليبقَ اثنان من شبابكم ساهرين على سطح بيت ناحية الشاطئ للمراقبة، ولديكم جهاز لاسلكي. ثم إن حكومة صاحب الجلالة عندما أمر بتوظيف كل أبنائكم بوظيفة حارس، ليس المقصود أن يتعبوكم، بل لإعانتكم ماديا تقديرا لموقع الجزيرة. وهذا معمول به فى كثير من النيابات النائية. أنتم في عصر النهضة، عصر صاحب الجلالة. فرددوا جميعا: الله يحفظه.

كنت قد قرأت تحقيقا مصورا لمجلة العربي الشهيرة التي تصدر شهريا من الكويت، أجرته في العام 1975، عن جزر الحلانيات كعادتها، فقد كانت تُخصّص في كل عدد شهري تحقيقا عن مدينة عربية مميزة. وقد ذُكر اسم «عوفيت» شقيق الشيخ في التحقيق، فسألته عن ذكرياته تلك، فما كان منه إلا أن استشاط غيظا قائلا إن ما ذكره المحقق سليم زبال الذي زارنا مع المصور كذب وافتراء، إذ ذكر أننا نبني بيوتنا بعظام الأسماك الكبيرة، ولا أدري من أين أتى بهذا الكلام! ولو رأيته مجددا لمسحت به الأرض، فأصلا هو اسمه «زبال»، ماذا تتوقعون منه. أكرمناهم وينقلون عنا معلومات كاذبة. قلت له: لعله ذكرها من باب شد القراء، وهذا أسلوب صحفي يتبعه، وأنا شخصيا استمتعت بالتحقيق. أما موضوع عظام السمك، فحتى نحن في صلالة يُتداول لدينا أن بعض بيوت حاسك تستعمل عظام الحوت العملاق كعمود، وهذا مبعث فخر لكم، فأنتم قلة وتعتبرون عائلة وسط محيط، وعشتم بها وحافظتم عليها، وهذا هو الفخر نفسه.

لفت نظري عدد من الأطفال يلتصقون بالشيخ، ويستمع لهم ويوشوش فى آذانهم ويحتضنهم. قلنا: كلهم أبناؤك يا شيخ عبدالعزيز؟ قال مبتسما: نعم أبنائي لكنهم ليسوا من صلبي. قلنا: أكيد، كلكم أسرة وأنت أبو الجميع. قال: هؤلاء ماتت أمهاتهم أثناء ولادتهم فى ظاهرة لا نعرف لها سببا، وقد أرسلت الحكومة لجنة طبية متخصصة لدراسة الحالة، لكنها لم تتوصل لسبب محدد حتى الآن. وقد أمر صاحب الجلالة بتولي تكاليف زواج كل من توفيت زوجته، وكل من يرغب في الزواج من شباب الجزيرة، بشرط أن يتزوجوا عمانية من المناطق المجاورة مثل حاسك وسدح وغيرهما، أو أي عمانية. ونأمل فى عثور المختصين الطبيين على حل لهذه الظاهرة، فقد أخذوا عينات من الماء الذي يتوقعون أنه السبب. قلنا له: يا شيخ، بعد أن رأينا الجزر اليوم، وشاهدنا مباشرة مناظر الخيص الشاطئية الجميلة، سواء على الأرض أو من الجو، بدت لنا فكرة استغلال بعض المواقع بها. ابتسم قائلا: الحكومة تعرف كل شيء أكثر منا، وما فيه الصالح للوطن، ونحن تحت أمر السلطان والحكومة. ونحن كنا بخير سابقا ولاحقا، فهذه المنطقة تكون صعبة فى الخريف، حتى الطائرات المروحية والعسكرية الصغيرة تجد صعوبة، والبحر يكون هائجا حيث ملتقى تيارات، فلا يصلح إلا للسفن الكبيرة.

قلنا له: فهمنا أنكم الآن بألف خير، فهل كنتم كذلك سابقا كما تفضلت؟ قال: نعم والحمد لله. زمان كنا مركز عبور للسفن القادمة من الشرق، من عدن وغيرها، وتأتينا السفن من صور لشراء الأسماك المجففة، ونشتري

منهم المواد الغذائية والملابس وغيرها، وأيضا من مرباط وسدح، وكان لوالدي سفينة ليست بالكبيرة، ولكننا نبحر بها إلى اليمن والمناطق القريبة من إفريقيا. وقد سافرتُ برفقته، نحمل من الجزيرة السمك والسيسان المجفف والصفيلح، ونبيعه ونرجع بالخير وما يسد استهلاكنا، ثم إن السفينة الإنجليزية التي كانت تحمل سماد الطيور من جزيرة السودة تأتي لنا بكميات من الأغذية كالسكر والشاي والطحين والمعلبات، حتى الكبريت والإبر تكفينا لفترات طويلة.

أتت طائرة السكاي فان العسكرية صباح اليوم التالي، فركبناها مع بعض من السكان ممن لديهم مراجعات في مستشفى صلالة، أو مصالح. ورجعنا محمّلين بكمية من الأسماك الطازجة. في المطار رفض زملائي في الرحلة أخذ أي منها، فأهل الأرياف كانوا لا يميلون لأكل السمك، وما زال عهدهم به قريبًا، فوزعتها على الأهل والجيران.

الهروب الصعب

كان الطّقس يليق بدخول موسم الصّرب؛ شمس دافئة بعد شهرين متتاليين من الرّذاذ والضّباب. الآن بدأت الرّؤية تتّضح، وبإمكان الجميع الاستمتاع بالنّظر إلى الجنان الخضراء دون طشّ أو رشّ. وفّقت عائلة الشّيخ محمد في اختيار مكان الرّحلة والتّخييم لهذا اليوم. كانت مرتفعات عقبة إيتين قرب المهرجان الأفضل في عكس كلّ جمال ربّانيّ يتحدّث بعظمة الخلق؛ اكتساء الجبال الشّاهقة الجرداء بحلية متناسقة من الخضار بألوان تبهج النّفس والرّوح، كما عكست جمال ما صنعه أهل ظفار في المدينة؛ بنيان ممتدّ متناغم، يتلألأ من بعيد، يُخبر بحضارة قائمة وستقوم أكثر وأكثر. نظر الجدّ محمّد إلى كلّ ذلك في ارتياح، تمشّى قليلا وسط العشب، ثمّ قبع على مقربة من النّار الّتي أقامها شبّان العائلة يشاهد البخار الصّاعد من إبريق الشّاي، ويحرّك بعود طويل الحطب من تحته. انزعج من محاولات الأطفال اللايائسة والمتجدّدة في مغافلته وقذف النّار بما جمعته

أيـديهم الصّـغيرة. صـرخ في النّسـوة الّـلاتي تجمّعـن علـى الحصـير جانبـا: «بسكن سوالف. تعالن شيلن عيالكن». ثمّ زمجر في الصّغار: «الله يهـديكم، ابتعدوا عن النّار»، ثمّ تمتم وهو ينتفض من مكانه، ويعـدل دشداشـته: «والله قمّة الدّلع. الله يرحم أيّامنا، الحمدلله الحمدلله، كلّ شيء تغيّر. فضل وبركة. الله يديم الرّاحة والعزّ، الله يدوّم الضّحكة وجلسـات الوناسـة ولمّـة العائلـة، آميين. الحمدلله». أدار الجبل ظهره، جلس القرفصاء متوكّئًا علـى عصـاه، اتّخذ وضعيّة الحبية؛ لفّ مصرّه حول سـاقيه، وسـرح ببصـره ناحيـة المدينـة والبحر بعينين لامعتين تتوسّطهما دمعتان متلألئتان تُخفيان حنينا وفرحا. لم يهنأ بخلوته؛ فسـرعان مـا التفّـوا حولـه. علـم أنّ لا دخـل للنّـار في جمعـتهم، تبسّم حامدا الله في سريرته. قاطعه أحد أحفاده مستفهما: «ما بالك يا جدّي؟ تبكي؟» وأضاف آخر متسائلا: «إلام تتطلّع هناك يا جدّي؟». ضحك بوقاره المعتـاد ثـمّ قـال بصـوت خافـت، يـنمّ علـى أنّـه سـيروي حكايـة فابتهجـت أساريرهم، واستعدّوا لحسن الإصغاء:

«لا تخفـى علـيكم يـا أولادي حقيقـة الأمـور؛ لـم تكـن الحـال في أواخـر سـتّينيات القـرن المنصـرم بهـذه الحـال. توسّـعت صـلالة كثيـرا، وارتفعـت المباني وصارت عملاقـة. زمـان، كانـت بسـيطة. توسّـعت وامتـدّت الآن مـن ريسوت إلى المعمورة. في أيّامنا كنّـا نراهـا مـن العقبـة مجـرّد رقعـة صـغيرة. عظيمة في كلّ حالاتها. إلا أنّ نفسي تأخذني إلى الماضي. عشـنا وقتـا عصـيبا وعويصا لكنّه غمر الأجواء بنفحات الودّ والرّحمـة. كنّـا ملتفّـين أكثـر. رغـم

كلّ شيء كنّا في كلّ مرّة نضحك بقوّة، كانت الضّحكة تخرج من الأعماق وبعنف وتتردّد لساعات وعلى مسمع الجميع. لا أعلم ماذا أقول ولا كيف أشرح لكم. لكن باختصار أحنّ إلى تلك الأيّام؛ رغم كلّ شيء. احمدوا الله على ما أنتم فيه من نِعَم.

في ذلك الزّمن تمّ تسوير صلالة بأكملها بسياج حديديّ مزدوج على شكل هلال من طرف البحر إلى أقصاه؛ من الدّهاريز شرقا إلى عوقد غربا. تحوّلت بذلك إلى سجن كبير. يحاول الأغلبيّة الهروب منه بشتّى الطّرق والوسائل. وتفشّت حكايات الهاربين من الشّباب بين النّاس. كان كلّ همّهم كيفيّة تجاوز تلك الأساور. لم يكن لهم حلٌّ غير البحر. كانوا يسبحون مستعينين بالكزاب؛ ذلك أنّ ثمر النّرجيل اليابس يطفو بسهولة على سطح الماء ولا يغوص إلى تحت مهما كان. أتذكّر العديد من القصص الّتي سمعتها آنذاك كما لو حصلت بالأمس القريب؛ منها الطّريفة، ومنها المأساويّة. ما سأرويه لكم اليوم يا أولادي قصّة هروب مختلفة وواقعيّة. قامت على أثرها صلالة ولم تهدأ إلا بعد مضيّ فترة لا بأس بها من الزّمن، وبعد أن فقدت السّلطات الأمل في العثور على صاحبها. لم تكن عبر البحر بل كانت أكثر جرأة؛ تخطّى الهارب السّور بكلّ شجاعة على حين غفلة من الحرس واختفى ولم يجدوا له سبيلا. عايشت أنا وأبناء جيلي البعض من تفاصيلها. كنت أعرف الفاعل حقّ المعرفة؛ يدعى بخيت. ومن لا يعرف بخيت في ذلك الوقت؟! كان رجلا بأتمّ معنى الكلمة؛ هادئ الطّبع، صلب الإرادة، شيخ جماعته، وعلمٌ من أعلام ظفار، في الأربعين من عمره، طويل

ونحيل البنية. تمّ وضعه بسجن حصن القصر بصلالة لما عُرف به من تمرّد. دعم الثّوار متجاهلا كلّ المحذورات. كان ذلك قبل أن يغيّروا مسلكهم باتّجاه المعسكر الشّرقي الشّيوعي؛ قصد الحصول على الدّعم العسكري والأسلحة. كلّ محاولة هروب قبله باءت بالفشل؛ فكان أوّل شخص يتطاول ويتجاوز حدود السّجن بنجاح. أتذكّر ذلك اليوم جيّدا. انتشر العسكر وعسس الحكومة كالجراد في كلّ أرجاء صلالة وأحيائها؛ وسط مزارعها وعلى شواطئها بحثا عنه. فتّشوا بيوت أقاربه وأصدقائه وكلّ من له صلة به؛ باختصار بحثوا عنه داخل كلّ منازل المنطقة. بل أكثر من ذلك، لم يتركوا فتحة أو حفرة أو بئر ماء إلا فتّشوها. حتّى تنانير الخبز وبراميل إنضاج الموز بالمزارع لم تسلم من حملة التّقصّي الّتي قاموا بها على مدى أيّام متتالية. جلسوا على تلك الحال لفترة طويلة إلى أن استنزفوا كلّ أمل في العثور عليه. أغلقوا الموضوع بخيبة كبيرة؛ لكنّهم فتّحوا أعينهم أكثر، وضيّقوا على النّاس أكثر أيضا. وكيف لا تكون منهم مثل ردّة الفعل هذه؟ كان موقفهم سخيفا، ولا يعبّر إلا عن ضعفهم وقوّة بخيت وحنكته. يقولون بأنّه هرب أمام أعينهم؛ تسلّق سور السّجن على حين غفلة من الحرّاس وفرّ، رغم أنّه كان عاليا؛ يرتفع عن الأرض ما يقارب طابقين. ثمّ تجاوز سور منطقة قصر الحصن بنفس الطّريقة ودون أن يخشى أمرا. ما أقدم عليه حيّر الجميع لفترة طويلة، كيف فعل؟ ومن ساعده؟ وإلى أين لجأ؟

وظلّ الأمر مبهما؛ حتّى لمّا عاد مع الظّفاريّين بعد بزوغ فجر النّهضة، لم يخبر لا أولاده ولا أيّ أحد عمّن ساعده وقدّم له يد العون كي يفلت من

أيديهم، ولم يحدّثهم عمّن زوّده بالطّعام والشّراب في مخبئه، لم يفصح عمّن زوّده بالسّلاح خفية في جنح الظّلام لحماية نفسه، لم يخبرهم عمن أعطاه راحلتين من الجمال؛ ليلتحق بزوجتيه وأبنائه بحثًا عنهم أينما كانوا مع قطعان أغنامهم بسهل صلالة. ثمّ رحل بهم إلى خارجها.

أذكر جيّدا أنّني رأيته لأوّل مرّة في مطلع السّبعينات بعد أن عاد. في ذلك الوقت رجع جلّ الظّفاريّين؛ ممّن كانوا في جبال ظفار ومن كانوا في المنطقة الحدوديّة المجاورة لنا؛ منطقة اليمن الجنوبي الّتي احتضن حزبها الاشتراكي الحاكم آنذاك «جبهة تحرير عمان والخليج العربي». وعاد أيضا من كانوا يعملون في حقول النّفط بدول الخليج الأخرى. ورجع من كانوا قد غادروا إلى بعض الدّول العربيّة بقصد الدّراسة أو بغاية ممارسة نشاطهم السّياسي أو بهدف التّدريبات العسكريّة. تخيّلتُ كالبقيّة أنّني سأستمع إلى بطولاته منقطعة النّظير؛ إلا أنّني وجدتُه رجلا قليل الحديث عن نفسه. كلّ ما تمكّنتُ من معرفته هو أنّه عندما كان في المهجر استقرّ مع أسرته بين ظهراني الثّوّار في حوف بمقرّ قيادتهم المتقدّم على حدود ظفار. أتعلمون يا أولادي ما الّذي جعلني شديد الاستغراب والحيرة؟ (هزّوا رؤوسهم بالنّفي متطلّعين بشوق إلى بقيّة الحديث). كما تعلمون دخل سجن الحصن بسبب دعمه للثوّار، وكما أخبرتكم جلس في معسكرهم، إلا أنّه رفض الانتماء إليهم أو أن يُلحق أبناءه بمدرستهم. لم يكن يروقه مسلكهم الشّيوعي. تساءل جميع من كان في مجلسنا كيف اعتذر منهم وبأيّ حجج تحجّج لكي يعفوه من ذلك؟ إلا أنّنا تفاجأنا بما يحمله في داخله من شجاعة تفوق ما

تصوّرناه عنه؛ فلقد صارحهم بكلّ جرأة وأعلمهم أنّه لن يضع يده بأيديهم أبدا مهما كانت أسبابهم لاعتناقهم المسلك الشّيوعي. هكذا بكلّ بساطة أخبرهم، وأصرّ على موقفه رغم أنّ عقوبة الارتداد عندهم تصل إلى الإعدام. انبهرتُ بجرأته وجسارته؛ فلقد كان مقداما لا يخشى شيئا. اهتممتُ لأمره جدا؛ فلم يكن يمرّ حديث بمجلس إلا اغتنمت الفرصة للسّؤال عنه أكثر.

عاش بخيت طفولته وردحا من شبابه في نجد ظفار وباديتها وفي مضارب اللّبان مع أخواله من قبيلة الرّواشد. فكان لذلك الفضل الأكبر لامتهانه رعي الأغنام والتّجارة فيها. عاش حياة الرّحّل؛ يتنقّل مع عائلته على امتداد سهل صلالة وراء قطعان الغنم بحثا عن الرّعي والكلأ. حتّى لمّا بلغت والدته من العمر عتيا، وخرّت قواها، ولم تعد قادرة على المشي، كان يحملها على ظهره كما تحمل البدويّة رضيعها، ولا ينزلها إلا حين التّوقّف للمبيت. استمرّ على تلك الحال لسنوات عديدة إلى أن توفّاها الله. وهكذا ضُرِب به المثل في البرّ بوالدته. واختلفت ألقابه بين الصّالح والبّار. ازداد إعجابي به منذ علمتُ ذلك. أيّ رجل هذا؟ وكيف لا أتّخذه قدوة بأخلاق البطل المغوار؟ كنت أتخيّل نفسي مكانه؛ أحيانا يستعصي عليّ ما يقوم به، وأحيانا أحاول أن أقلّده. وأتباهى عند مجالسته والحديث معه.

دخل السّجن؛ وهو على يقين بأنّه مظلوم. كان مقتنعا بما كان يفعله. يعتبر أنّ الثّوّار فرسان العصر لإنقاذ البلاد من كلّ قمع. لم يرض بوجوده وراء القضبان؛ فمن ناحية الوطن يحتاجه بالخارج، ومن ناحية أخرى

الحكومة ترى أنّ جرمه كبير، وعقابه أكبر. ثبتت عليه التّهمة أكثر؛ لأنّهم يعلمون أنّه تاجر مواشٍ، ولديه حظائر أغنام في ريسوت، ولقد كانوا بدورهم يشترون منه. وهذا في حدّ ذاته برهان ثراء في ذلك الزّمن؛ فمن غيره سيزوّد الثّوّار بمؤونتهم في الجبال. اعتبروا ذلك دليلا وبرهانا وحجّة عليه. بعد تقصّ جادّ، عرف أنّ عقوبة فعلته قد تصل إلى السّجن المؤبّد، واشتدّت محنته عندما علم أنّ ذلك سيؤدّي إلى نقله إلى سجن جلالي مسقط. وهذا السّجن يا أولادي تداول الناس حوله أقاصيص رعب كثيرة، يقولون إنّ الدّاخل إليه مفقود والخارج منه مولود. بذلك تساوى في نظره الأمران؛ إن مات في سبيل الهروب من سجن صلالة أو مات في سجن جلالي مسقط. اتّخذ القرار، وإن كانت فرصة نجاته ضئيلة؛ إلا أنّ الأمل موجود.

منذ أن سجنوه؛ وهاجس التّحرّر من أساوره يسيطر على تفكيره. صار الهروب أمرا لا مفرّ منه. ركّز تفكيره في التّخطيط لتنفيذه. أمعن النّظر في أرجاء المكان علّه يكتشف ثغرة هنا أو هناك، دقّق في تصرّفات من حوله إلى أن حفظ عاداتهم وسلوكيّاتهم. لم يجد منفذا إلا استراحة الحرّاس الدّاخليّة؛ ذلك أنّ جدرانها لم تكن ملساء كباقي الجدران؛ ممّا سيساعده على تسلّق السّور بسهولة وسلاسة. في البداية استغرق وقتا في دراسة المكان؛ حدّد معالم الاستراحة بدقّة تامّة. حفظ كلّ تفاصيلها. ثمّ قرّر وضع خطّة محكمة الأبعاد تشمل النّاس والحجر والزّمن. تفادى الاختلاط المكثّف بالسّجناء؛ بل امتنع عنهم وقت الاستراحة في حوش السّجن. فكان الجميع يرونه مفترشا مصرّه كسجّادة بالقرب من استراحة الحرّاس ساجدا راكعا

يؤدّي النّوافل. ويظلّ على تلك الحال طول الوقت إلى أن نعتوه بالمطوّع، واقتنع كلّ من حوله بفعله، واعتادوا على سلوكه. بعد فترة طلب من السّجّانين أن يسمحوا له بالصّلاة وسط الاستراحة نفسها. تحجّج بأصوات السّجناء، قال إنّها تشتّت انتباهه وهو يريد التّعبّد بخشوع، والتضرّع إلى الله بتركيز ومناجاته بإجلال. اعتبروه رجلا متديّنا، مباركا، تقيّا، صالحا، فحصل على الاستثناء دون عناء. وظلّ على حاله تلك لأيّام عدّة، فغدا أمره روتينيًّا. واعتاد الحرّاس على وجوده هناك فصاروا يتركونه يتعبّد براحته ويتجوّلون في الجوار. ووصل بهم الأمر إلى الاطمئنان فكانوا يحرسون البقيّة، ويتغافلون عنه وقتا طويلا. وعندما يتفقّدونه يجدونه على حاله فتتأصّل الطّمأنينة بداخلهم أكثر. لكنّهم جهلوا بما رسمه بخيت من خطّة. علم أنّ الحائط الشّمالي الخلفي للسّجن لا حراسة عليه، بعكس النّاحية الجنوبيّة المطلّة على ساحة القصر حيث بوّابات السّجن؛ فقرّر التسلّق من هناك. تحيَّن الفرصة المناسبة لتنفيذ ذلك. تريّث وصبر إلى أن يحين الوقت. وفي أحد الأيّام سمع صوت شاحنة توقّفت خلف جدار السّجن. تنصت جيّدا. التقط سمعه بعض الكلام ممّا غمغم به الحرّاس المارّين بالقرب من الاستراحة. عرف أنّها سيّارة التّجّار البانيان. وكان قد سمع من قبل أنّها ستفرغ حمولة رمل بجانب السّور لترميمه. حدّث نفسه بأنّها الفرصة الّتي ينتظرها، ويجب أن يغتنمها بشجاعة ويتصرّف على عجالة. الوقت يداهمه، ويجب أن يتحرّك قبل أن يشرع العمّال بإزاحة الرّمل؛ فوجوده تحت الجدار

مباشرة سيساعده على القفز دون أيّ أضرار جسديّة، ودون أن يحدث صوتا قد يجذب الانتباه.

كان يحفّز نفسه بغمغمات عدّة: (هيّا. الوقت بالنّسبة لي كالسّيف؛ إن لم أقطعه قطعني. يجب أن أسرع. تسلّق هذا السّور شبه مستحيل؛ لكن يجب عليّ أن أصمد. أنت لها. هيّا، قلبك صلب كالصّخر. لا تنظر إلى تحت، تسلّق، ارتفع، أسرع...). وبالفعل نجح في اجتيازه. صارت مهمّته أصعب. يجب عليه تتّبع كلّ تفاصيل الخطّة الّتي وضعها في حالة الاجتياز. كان قد فكّر في ذلك من قبل، فبعد تخطّي حرم القصر وحارات منازل عسكر السّلطان، يجب عليه اجتياز السّور الثّاني؛ وبذلك يخرج من دائرة الخطر. لكنّ هذا السّور، وإن كان أقلّ ارتفاعا من سور السّجن فإنّ أمره أشغله واعتبره الأصعب؛ فكيف سيتخطّاه دون أضرار، وقد غُرست أعلاه قطع من الزّجاج. أيضا فكّر جيّدا في أنّ خبر هروبه سيشكّل أزمة حقيقيّة، وبمجرّد معرفتهم بالأمر سيطوّقون كلّ المناطق القريبة وبكثافة عسكريّة رهيبة، فلن يكون لديه حلّ غير الاختفاء عن أنظارهم إلى أبعد ما يمكن بسرعة فائقة. ولم يترك الأمر للحظّ؛ احتاط جيّدا، خمّن أماكن الاختباء الآمنة الّتي لا تخطر على بالهم إلى أن تنتهي فترة البحث عنه أو تخف. كما فكّر في مصادر الأكل والشّرب، والزّمن المتاح للتّحرّك من نقطة إلى أخرى. إن اتّبع الخطّة بحذافيرها سيسهل عليه الانطلاق إلى السّهل الواسع دون ملاحقات في أقلّ من شهر. تذكّر ما رسمه في خياله، واتّخذ العزم على الإسراع والتّنفيذ دون خوف لا من زجاج ولا من جنود ولا من علوّ. تناسى مشواره الطّويل

وعراقيله. يجب أن يجتاز السّور الأخير حثيثا، يجب أن يتحرّك بدون توقّف على طول مزارع صلالة إلى أن يصل إلى النّقطة الأولى الّتي حدّدها في مخيّلته».

أطلال قصر وجامع البليد

سكت الجدّ قليلا، واعتدل في جلسته. ظنّ الأولاد أنّه فرغ من الحديث؛ فاحتجّوا: «هيّا جدّي أكمل. لا تتوقّف. أكمل، أخبرنا ما كانت خطّته؟ كيف فعل؟ كيف هرب؟ التّفاصيل يا جدّي. التّفاصيل. نرجوك». ضحك قائلا:

«الله بالصّبر. أليس لديكم صبر؟ ألا يحقّ لي أن أتنفّس؟ والله صدقوا، زمن العجلة ههه...».

هرجوا قليلا، وقهقهوا معتزّين بزمنهم. حمحم لشدّ انتباههم ثمّ قال:

«اسمعوا يا أولادي. سأروي لكم التّفاصيل الّتي قصّت عليّ كما هي. سأبدأ منذ حضور الشّاحنة. كان ذلك أثناء وجود السّجناء في البهو، وعادة، يكون باب استراحة حرّاس السّجن مغلقا في ذلك الوقت. قرعه بلطف. فتح له الحارس بعدما تأكّد منه. خاطبه بخيت بنبرة قلق وانزعاج: أسمعت الضّجيج ياعمّ أحمد؟ لا أعرف ما مشكلة هؤلاء السّجناء. يكونون هادئين داخل عنابرهم؛ لكن وقت الاستراحة عندما يلتقون معًا -أستغفر الله- الإزعاج بذاته. لم أقدر على التّركيز في صلاتي حتّى.

ردّ عليه بهدوء: معظمهم لهم أقارب أو أصدقاء في عنابر أخرى، ولايلتقون معهم إلا خلال الاستراحة. ماذا لديهم ليفعلوه؟ الله يفكّ أسركم جميعا.

قال ذلك، وخرج؛ ليأخذ جولة ويتركه على راحته في مناجاته وصلاته كما زعم. تأكّد بخيت من أنّه الوحيد المتبقّي من الحرّاس بالبهو. من ثمّ دلف داخل الاستراحة، وأحكم غلق الباب عليه. لكن هذه المرّة لم يتّخذ من مصرّه سجّادة للصّلاة؛ بل ربطه على وسطه. وأخذ يتسلّق كالعنكبوت الحائطين المتعامدين في الرّكن مثبّتا راحتي كفّيه وأصابع قدميه بطريقة احترافيّة إلى أن وصل إلى أعلى السّور. ثمّ قفز سريعا على كومة الرّمل. لم يأخذ قسطا من الرّاحة. نهض بعجالة. عدّل هيأته، واتّخذ من مصرّه قناعا ممتازا، واتّجه غربا كأيّ عابر سبيل بمحاذاة السّجن دون ارتباك باتّجاه السّور الآخر. استغرب في بادئ الأمر خلوّ الطّريق بين جدار السّجن والحارة

المقابله له؛ لكن حين تذكّر أنّه يوم جمعة بطل العجب. وعلم أنّ الحظّ يحالفه؛ فهذه المنطقة تكون عادة مزدحمة بالمارّة. وصل إلى الحاجز الثّاني بسلام. توقّف هنيهة ليستجمع قوّته فمنذ البداية أهمّه أمر الزّجاج بالأعلى. وإذا به يتفاجأ بأنّ القدر هيّأ له ما يساعده؛ وها هو الحظّ يحالفه من جديد. فلقد وجد بمحاذاته سنبوقا خشبيّا يبدو أنه وضع هناك للصّيانة؛ فهي عادة تستعمل لتفريغ حمولات سفن البضائع عند الفرضة في منطقة القصر. جرّه إلى الجدار. اعتلاه، سحب مصرّه، طواه ولفّ به يده اليمنى. ثمّ أخذ يهشّم الزّجاج. يلكمه؛ فيسقط شظايا خلف السّور. فعل كلّ ذلك دون أن يُحدث جلبة تجذب انتباه أحد؛ فلقد كانت الأرض رمليّة. بعدئذ تسلّق بسهولة دون حائل يُذكر. وهكذا انتهت مراحل التّسلّق العنكبوتيّة والقفزات البهلوانيّة بنجاح؛ رغم الجروح الدّامية الّتي أحدثتها بالكفّين والخدوش الّتي خلّفتها بفخذيه. إلا أنّه انتفض، فكّ مصرّه وانتبه أنّ لونه أحمر؛ فتبسّم للقدر الّذي سخّر له كلّ الحظوظ حتّى في الألوان؛ فلم يكن مخطّطا لذلك. أخذ يضمّد به جروحه؛ كي لا تلفت نظر من يعترضه. لم يشعر بالألم؛ فلم يكن هناك مجال للتّأوّه أو التّفكير بأيّ إحساس. اجتاز منطقة القصر بأكملها بخطوات واثقة رغم أنّه كان يتوقّع طلقة رصاص في أيّ لحظة. ولم يتبقّ غير أن يحثّ الخطى إلى منطقة المزارع شمالا والاندساس بين مقاييفها؛ حينئذ ستواريه كثافة أشجارها عن الأعين.

استمرّ بالسّير حثيثا بخفّة رجل البراري والسّيوح. وهنا يا أولادي تتجلّى فائدة شرب لبن الغنم؛ فهو كما تعلمون راعي، ولا يعيش إلا به، يشربه كالماء. قال العرب منذ القدم إنّ شاربه يتميّز بخفّة الحركة وسرعة التّنقّل، بعكس لبن البقر فهو يثقل الحركة ويسبّب الكسل بدسامته رغم قيمه الغذائيّة. أرأيتم؟ البطولة والقوّة لا تأتيان صدفة. يجب التّغذية السّليمة. الأبطال الشّجعان تساندهم الطّبيعة، وتحفّهم بالغذاء السّليم. من لا يحبّ شرب حليم الغنم؟».

تحمّس الأطفال حوله وأخذوا يترامون هذه الصّفة اللّامحمودة في ما بينهم، ويتباهى كلّ واحد منهم بأنّه يشرب من شراب الأبطال. ضحك الجدّ مستمتعا بما أثاره في نفوسهم من مواعظ وإرشاد، وهو على يقين من أنّهم سيتهافتون عليه بعد الآن، ولن يرفض أحد الارتواء منه حتّى الشّبع. قال بسعادة ليلملم جلبتهم، ويشدّ انتباههم من جديد:

«المهمّ. تسلّل بخيت إلى مزارع صلالة. اندسّ بحذر وسط أشجارها الكثيفة. واتّجه شرقا نحو منطقة القرض البعيدة عن منطقة السّجن والحصن. وصل قبل غياب الشّمس قرب المنزل الّذي يقصده. لم تكن الحركة قد سكنت في المزارع وبين مقاييف طرقاتها بعد. قرّر التّخفّي إلى أن ينسدل الظّلام وتتوقّف حركة المزارعين؛ فلقد كان يعرفه الكثير من أبناء المنطقة، وهذا سيشكّل خطرا عليه. تسلّق نخلة طويلة كثيفة الأغصان، واتّخذ علوّها مكانا جيّدا للتّخفّي وبرج مراقبة ممتازًا يمكّنه من رؤية

السّيّارات وسماع صوتها قادمة من بعيد، ويتيح له التّأكّد ممن دخل إلى البيت المقصود ومن خرج منه. يجب عليه التّيقّن من أنّ لا غريب لديهم. كان بخيت فطنا للنّظام الدّاخلي الّذي تسير عليه الحكومة من جهاز أمني وعسكري. فلقد انقسم إلى عسكر مدنيّين ذوي أجهزة أمنيّة صغيرة رغم تنوّعها يهتمّون فقط بداخل المدينة، وإلى عسكر نظاميّين يتبعون القصر مباشرة يهتمّون بما يجوب المناطق الجبليّة من تحرّكات الثّوّار، ولقد كان شغلهم الشّاغل البحث عن الجواسيس المندسّين بين المواطنين. كان يعلم أنّهم عموما بطيئو الحركة وهذا ما طمأنه قليلا، كان على يقين من أنّه سيسبقهم إلى مخبئه؛ إلا أنّ بطشتهم قاضية إذا تمكّنوا من الشّخص، وهذا ما جعله يشدّد الحرص، ويسرع قدر المستطاع.

انسدل الظّلام، تحوّل المكان إلى وحش يساند وحشة الهروب. صار ليل مزارع صلالة بهيما مقفرا. احتشد الظّلام بقوّة من حوله. لا شيء يظهر من خلاله إلا ضوء مسرجة خافتة من بين شقوق أحواش العريش. نزل من أعلى النّخلة، وتسلّل نحو بيت عريش صديقه. قرع الباب، فتح له أبو ليلى، شهق ما إن لمحه، وكاد أن يصرخ فرحا لولا أن سبقه بيده على فمه فصكّه موشوشا: «هل عندكم غريب؟ لقد هربت». حرّك رأسه نافيا ما قاله، وسحبه بدوره إلى الدّاخل، وأوصد الباب خلفهما. هاج البيت في صمت، وتكاتف الجميع يحاولون معالجته. سخّنت أمّ ليلى الماء وسكبته داخل قنّينة بها بقايا «آيدين» فوّاح الرّائحة يمكن شمّه من بعيد؛ أي أنّه فاضح إلا

أنّه النّوع الوحيد المتوفّر في صلالة آنذاك. ولهذا السّبب بالتّحديد أوقدت تنار الحوش، وشوت بعضا من الفندال كي تفوح رائحة شوائه الزّكيّة، وتملأ الأرجاء، وتغطّي ما فاح من الآيدين. هكذا لن يفتضح أمرهم، ولن يعلم أحد أنّهم يطبّبون أحدهم بالدّاخل. كانت مرأة فطنة، علمت ما يستوجبه عليها الموقف من تستّر. التهى أبو ليلى بإزالة شظايا الزّجاج من أطرافه، وتطهير الجروح بالآيدين، بينما جهّزت له عصيدة بالدّبس تُرجع الرّوح، وتُغذّيه. جهّزت له مكانا للمبيت إلا أنّه اعتذر قائلا: «ارتحت بما فيه الكفاية. ليس هناك وقت للرّاحة اليوم. ولا نوم لي أيضا. الحكومة بأكملها تبحث عنّي. منذ الفجر سيمشّط العساكر كلّ البيوت الّتي أعرفها. سيستجوبون كلّ من يعرفني. ولا تحسبا أنّهم لن يقدروا على معرفة كلّ من لي علاقة بهم. يا كثرة جواسيسهم. لقد اندسّوا في كلّ مكان، خصوصا في الآونة الأخيرة». شعر الزّوجان بالحزن لكن لا حيلة لهما. أردف: «عليّ المغادرة فورًا. الوضع خطير. لا شكّ أنّهم تتّبعوا أثار خطواتي؛ تحطّم الزّجاج، بقع الدّم. يجب أن تزيلا أيّ دليل. احترس يا صاحبي. وإلا سيضعونك في سجن الحصن بدلا منّي. وكأنّك يا أبو زيد ما غزيت. حركة ذكيّة من أمّ ليلى أنّها شوت الفندال؛ لن ينتبه أحد إلى رائحة الآيدين، ولن يفطن أحد إلى أنّ هناك من احتاج العلاج هنا. شكرًا مجدّدًا لك يا صديقي. شكرًا لكِ يا أمّ ليلى». انتفض من مكانه، وأخذ يعدّل مصرّه؛ كي يتلثّم به

قائلا: «سأتحرّك فورا باتّجاه أحراش وخرائب البليد كي أصل قبل الفجر. أحتاج فقط إلى قليل من التّمر، وقربة ماء صغيرة الحجم، ماء خور البليد صالح للشّرب. سيكفيني هذا الأيّام القادمة». حرّك أبو ليلى رأسه آمرا زوجته بإحضار ما طلب، انتظرها إلى أن غابت ثمّ اقترب موشوشا: «روحي فداك يا بخيت. أحسّ أنّك تريد أن تسرّني كلاما مهما، ماذا هناك؟ قلْ». اقترب منه، وأسرّه ما بنفسه: «لي وصيّة. الرّجاء نفّذها بحذافيرها فهي جزء من خطّتي القادمة. وانتبه أن تطلع أحدا عليها. أتذكر راعي الدّهاريز؟ ذاك الّذي عرّفتك عليه لمّا كنّا..». قاطعه مؤيّدا: «أجل أجل، تقصد صاحبك أبو مسعد؟» فواصل مطمئنا: «نعم، هو بذاته. انتبه لما سأقوله لك. أريد أن تقوم بزيارته غدا ليلا، أخبره بما حصل معي، وممّا لا شكّ فيه سيكون حينئذ قد علم بأمر هروبي، قل له بأنّني سأكون مختبئا تحت أحد الأحراش في منطقة البليد أو بأحد الخدور الصّغيرة على حواف الخور». استغرب قائلا: «أواثق أنّك ستكون بأمان؟ إنّي أخشى عليك من..»، ردّ بكلّ ثقة: «لا تخف. إنّي أعرف الموقع جيّدا. أحيانا كنت أرعى أغنامي هناك، وأستظلّ فيها ظهرا. المهمّ، ستكونان أنت وأبو مسعد همزة الوصل بيني وبين أهلي؛ ستمكّنانني من معرفة موقع مخيّمهم الحالي، وتساعدانني للالتحاق بهم». طأطأ موافقا، مربّتا على كتفه بينما استدرك: «انتبهْ، وحذّرْ أبا مسعد أيضا. لا تأتياني إلا بعد العشاء. اللّيل ساتر. سأحاول التّخفّي قدر المستطاع نهارا، وسيصعب

عليكما إيجادي؛ بينما عِشاءً ستجدانني على مرتفعات أنقاض حصن البليد. سأتّخذ منه برج مراقبة جيّدا؛ فإن رأيتُ أنّ الوضع آمن سألقي باتّجاهكما حصى وأنزل لكما؛ ولو لم أقذف حصى خذا حذركما، وجهّزا كذبة تتحجّجان بها إن سألكما أحد عن سبب وجودكما هناك». طأطأ موافقا، وطمأنه قائلا: «تمام، تمام يا بخيت. لكنّي لم أفهم ما هي خطّتك بالضّبط». تبسّم متحفّظا على بقيّة الخطّة: «هذه هي حاليا؛ سأظلّ هناك إلى أن تتوقّف عمليّات البحث عنّي. من بعد ذلك، سأنتهز الفرصة المناسبة للالتحاق بعائلتي أينما كانوا، ونُغادر ظفار. إلى أين؟ لا أعلم. لكن يجب أن نرحل من هنا».

لم يقدر صديقاه الوفيّان على أن تمرّ أيّام دون أن يطمئنّا عليه. لحقا به في اليوم التالي مباشرة على حسب ما أوصاهما. أتاه أبو ليلى بالمزيد من المؤونة: تمر وكعك البر الثّخين وكعك القالب. بينما جلب له أبو مسعد مسدّسا بلجيكيا بمخزن طلقات إضافيّة. ظلّ المسكين على تلك الحال ستّة أيّام بأكملها؛ مختبئا تحت الأحراش نهارا، وليلا يجتمع بأخوين لم تلدهما أمّه، أتت بهما الأيّام والظّروف، يوافيانه بالزّاد ويعلمانه بآخر الأخبار. في ذلك اليوم، أتاه صديقاه مستغربين من أنّ العسكر قد تركوا مخيّم أسرته في حاله، بينما كان بخيت متأكّدا من أنّهم سيصرفون النّظر عنهم سريعا؛ فكيف لهم أن يتوقّعوا أنّ رجلا بذكائه من الممكن أن يلجأ إلى أهله والجميع

يلاحقه، ومن ثمّ هو ليس أكبر همومهم في تلك الفترة؛ فالتّحرّكات الثّائرة مندسّة في كلّ مكان، وكثر الاضطهاد ضدّ قمعهم. قرّر الرّحيل في الغد تحت وطء الظّلام كالعادة. طلب من أبي مسعد أن يجهّز له مطيتين لحمل زوجتيه وأطفاله ومتاعهم. فاقترح عليه: «أرى أن لا تؤجّل المغادرة إلى الغد؛ بل ارحل حالا، واترك هذه الخرابة وهوامها وكلابها الضّالّة. تقدّم على طريق السّاحل. سنلحقك بإذن الله، نلتقي عند بستان نخيل الخندق، أسلّمك ما طلبت، ومن ثمّ انطلق بالاتّجاه الشّمالي ناحية الجبل حتّى تتجنّب دوريّات المدينة. بعد ذلك حدّد طريقك بنفسك». سكت قليلا، خمّن؛ ثمّ أردف: «أتوقّع أنّك ستتّجه ناحية جاذب وحوف، أليس كذلك؟». أجابه في الحال بحسم: «ومن لنا سواها؟ كانت أرض المهرة نعم الجار على مدى العصور، ولا تزال كذلك».

حلّ مساء اليوم السّابع منذ هروبه، تسلّل إلى مزارع الدّهاريز، امتطى إحدى المطيّتين، واتّجه بخطّ مستقيم كما نصحه صديقه إلى أن وصل إلى الجربيب، ثمّ انعطف يسارا فغربا بامتداد السّهل. استغرقت رحلته أربع ساعات إلى أن التحق بخيمة أسرته. كان مطمئنا طول الوقت ببندقيّة الباراشوت الّتي دسّها أبو مسعد وسط سرج المطيّة، نسي القلق الّذي سبّبه له المسدّس. لم يسترح ولم يضيّع وقتا في التّرحاب، اصطحبهم فور وصوله. ظلّ يحثّ راحلتيه على المسير حتّى انبلج الفجر وهم تُخُومَ

مرتفعات عدونب. تنفّس الصّعداء قليلا فلقد بلغ نقطة الأمان التّامّ. لا يمرّ عسكر الحكومة من هناك إلا عند تشكيل حملات عسكريّة كبيرة. استنشق نسمات الفجر العليلة فأحسّ بالانشراح يملأ صدره. نظر حواليه، تأمّل أشجار اللّبان بوادي عدونب فاشتمّ عبق الحريّة. فاحت رائحة اللّبان ذكّرته بأخواله الرّواشد، تنهّد من جديد وحمد الله على نعمته. تلألأ في عينيه بصيص الأمل وغمرته سعادة؛ فبمجرّد وصوله إلى حوف يبدأ حياة جديدة مع أسرته.

عاش بخيت بعد تلك المعاناة حياة كريمة بهدوء. حاول أن يبتعد عن الثّوّار وحركاتهم الباطشة خصوصا أنّه لم يقتنع بالتّيّار الشّيوعي الّذي انتسبوا إليه. ظلّ هناك أيّاما وسنين. لم يتخيّل أنّه سيعود يوما إلى ظفار، لكنّه كان يتابع أخبارهم أوّل بأوّل. وفي بداية السّبعينات، بعد حلول النّهضة المباركة، بدأ مئات الظّفاريّين من الّذين كانوا قد هربوا من ظلم السّتّينات بالعودة إلى الوطن. توافدوا من كلّ مهجر منذ **23** يوليو **1970**، فلمَ الغربة وقد هلّ هلال العدل والحريّة والكرامة بعد ليل طويل؟ هكذا حسم بخيت أمره بالرّجوع. حلم كلّ تلك الفترة بمضارب اللّبان عند أخواله. حين عاد مارس تجارته بكلّ احترافيّة وشغف. استخرج اللبان، باعه، وصدّره كما فعل الظّفاريّون القدامى منذ آلاف السّنين؛ فهو المصدر الّذي لا ينضب لعمان. أصبح من أكبر تجّاره؛ بل صار المزوّد الرّئيسي به للدّيوان. لم يكن

لـه منـافس. فلقـد تشـارك مـع صـديقه القـديم مـع ذئـب النّجـود والبـوادي؛ فاشتدّت عزوته وعظمت تجارته».

كان الجدّ ينوي ختم قصّته إلا أنّ أحد أحفاده قاطعه بفضول شديد: «ذئب النّجود. أيعقل أن يكون هذا اسم شريكه؟! أم تراها كنية؟». ضحك الجدّ قائلا:

«على ما يبدو أنّكم لن تتركوني بسلام اليوم قبل أن تُفرغوا قربتي كلّها. ههه... طيّب. ، سأشبع فضولك. ذئب النّجد وهي ليست إلا إحدى كُناه التي تسمّى بها مسلّم بن طفل صاحب المقولة الشّهيرة الّتي يردّدها الكثيرون «الصّقر لا يأكل قنص الرّجل»، وهو أحد الشّجعان الّذين أنجبتهم ظفار، فكان خير سند لبخيت».

تداخلت الأقوال بين قائل بمعرفتها، وآخرون يحاولون تذكّرها؛ بينما استغربوا جميعًا قائلين: «لمَ اشتهر بهذه الكنية؟ ذئب النّجود والبوادي؟». نهرهم ليلتزموا الهدوء ثمّ أكمل حديثه:

«كان أشهر قنّاص، وعُرف كأفضل رامٍ. لهذا لُقّب بذئب النّجود والبوادي. سأقصّ عليكم أشهر قصّة عُرفت عنه. في إحدى رحلات الصّيد لمسلّم بن طفل مع رفاقه، وضع قنص صيده على جانب منه والتهى بإشعال النّار. على حين غفلة منه، انقضّ صقر على متاعه، وحلّق بها بعيدا. ظنّ الجميع أنّه قد خسر أكله فأخذوا يواسونه بكلمات شتّى. لم يستمع لهم،

وأسرع إلى بندقيّته، وقنّص السّارق؛ فهوى مترنّحا وقد أفلت ما حمله بين مخالبه. لم يكن بالغريب على مسلّم أن يصيب التّسديد. لكن طرافة الموقف جعلت من مقولته حكمة تتناقلها الأجيال. أخذ ذئب النّجد متاعه محدّثا الصّقر بأعلى صوته: الصّقر لا يأكل قنص الرّجال. أعجب الجميع بجسارته وردّدوا مقولته، واستمرّت إلى يومنا هذا تُخبرنا بسلوك الأبطال الشّجعان.

كان الشيخ مسلم بن طفل قد ذاق مرارة السجن كصاحبه لكن في سجن كوت جلالي مسقط الرهيب، بعد أن تمّ إلقاء القبض عليه في شمال عُمان، ولم يخرج منه إلا بعد العفو السامي من لدن جلالة السلطان قابوس -طيب الله ثراه- في 23 يوليو 1970 مع جميع المساجين الآخرين، وقد كان شيخ جماعته وخدم بعد خروجه من السجن في مكتب والي ظفار (معالي وزير الدولة ومحافظ ظفار حاليا) وعين نائبًا للوالي بمقشن منذ ذلك الوقت، وأصبح واليا عليها بعد أن تحولت ولاية، وهو أول من أسس حصن مقشن، وما زال هذا الحصن يعرف باسم «بن طفل» إلى اليوم. ومن المعروف أن الشيخ بن طفل كان دليلًا مرافقًا لكثير من الرحالة والمستشرقين الأجانب، من ظفار إلى شمال عُمان عبر صحراء الربع الخالي. رحم الله الشّيخين: الشّيخ بخيت بن خليجة بطل الهروب المستحيل، والشّيخ مسلّم بن طفل قاهر الصّقور. كانا من أشجع رجال ذلك العصر ومثالا أعلى بالنّسبة لكلّ

الشّباب. لطالما حلمتُ أن أكون بجسارتهما. سما كلّ واحد منهما باسم أمّه».

ردّدوا في الحال: «كيف يا جدّي؟». ضحك قائلا:

«أنتم لي بالمرصاد. ههه.. حسنا، إنّه العرف الجاري لدى أهل النّجد والبادية. يسمّون الرّجل المميّز المقدام الشّجاع باسم والدته. هذا كلّ ما في الأمر. ألا يكفي أنّ ظفار بأكملها صارت تعرفهما؟».

تحمّس الأحفاد، كلّ يريد أن يسمو باسم أمّه. تهامسوا بالسّبل والطّرق الّتي بإمكانها أن توصلهم إلى هدفهم. بينما تفطّن أحد الأبناء لأمر فعلا صوته مستفهما: «لكن يا جدّي لِمَ أخفى عن أولاده، وعنّا، أسماء من ساعدوه؟ أتعرفهم؟ أليسوا أبطالا أيضا؟ لقد أسهموا في نجاح مهمّة هروبه». نظر إليه لبرهة معجبا بفطنته الّتي تذكّره بحاله، ثمّ قال:

«أتعلم؟ لطالما سألت نفس سؤالك في داخلي؛ وقد يكون تطلّع الكثير شوقا لمعرفة شخصيهما، وأبناء ابن خليجة ليسوا بعيدين عن فضولنا؛ فلقد أصرّوا مرارا وتكرارا على أن يُخبرهم أبوهم بأسماء أصحابه الّذين قدّموا له العون وكانوا مستعدين للتّضحية بأنفسهم من أجله. تحجّجوا بأنّهم يريدون أن يردّوا لهم الجميل، لكن محاولاتهم باءت بالفشل. كان يجيب بغموضه المعتاد: «لا عليكم من أصدقائي، انشغلوا فقط بإيجاد أصدقاء أمثالهم».

على حسب توقّعي الخاصّ لاشكّ أنّه قد عاهدهم من قبل، وعاهد نفسه أن لايخبر أحدا عنهم».

ردّد كل من في الجلسة: «إنّهم أبطال أيضا. الوفاء من شيم الأبطال». وانقسموا إلى مجموعات يراجعون حساباتهم في أصدقائهم. وسرعان ما انشغلوا باللّعب من جديد وقد اخترعوا لأنفسهم ألقابا وقصصا من وحي الخيال ووسّموا أنفسهم أبطالها. كانوا ينادون على أمّهاتهم بين الفينة والأخرى واعدين لهنّ بأنّهم سيسمون بأساميهنّ، والوالدات منشغلات بإعداد الغداء على الحطب، وطرح شتّى أنواع السّوالف.

ألقى الشّيخ محمّد نظرة بنفس راضية تفحّص بها كلّ ما حوله وأمامه. دعا لعمان وقائدها وللشّيخين وللأسلاف. افترش مصرّه وصلّى ركعتين حمدا وشكرا، ورفع يديه طالبا من الخالق دوام النّعمة فانهمر الغيث.

سوق محافظة ظفار (ماركيت الحافة) القديم

للأسماك واللحوم والخضار والحطب والحشائش

سوق ظفار القديم بالحصن

البطران

شرع عامر في بناء منزله؛ أوّل منزل يشيّده استعدادا لتكوين أسرة مستقلّة عن بيت أهله. كان أحد المحظوظين ممّن وزّعت عليهم أراض للبناء بالمنطقة الجديدة الّتي خُطّطت بغرض تيسير حال المواطنين، وتمكينهم من امتلاك مساكن خاصّة بهم. صرفت له الحكومة الباحة، وشيّدها بقرض إسكاني حكومي ميسّر. كان متفائلا جدا بما تحمله من معانٍ في اسمها؛ منطقة السّعادة. بنى آمالا من الفرح. لم يعد يرى غير مستقبله المنشود المستقلّ. يوميا بعد عودته من الدّوام، يتناول الغداء، يأخذ قيلولة قصيرة، ثمّ يستيقظ بنشاط وهمّة، ويسرع نحو السّعادة كي يتفقّد سير أشغال البيت الجديد، ويحاول وضع بصمته الفنّيّة والإشراف على كلّ التّغييرات. كان كلّ عصر يتّجه إلى هناك ويباشر مهامّه الرّوتينيّة. يسلّم ترمسه الصّغير إلى أحد عمّال شركة البناء الّتي وكّل لها أمر بيته، وعادة ما يكون العامل خان؛ فهو يستظرفه، ويحبّ طريقته في إعداد الشّاي. وكان هذا الأخير ما إن يراه

يسرع إليه ويستقبله بأجمل ابتسامة مع طأطأة الرّأس قائلا: «كيف حال بابا؟ زين؟ جيب. أنا في سوّي ترتيب». يهزّ رأسه بذبذبة يمنة ويسرة. كان يفعل ذلك ليبدي له استعداده التّامّ لتلبية كلامه رغم أنّه في غالب الأحيان لا يسمع ما يقول، لكنّه يفهمه ويعلم ما يريد منه. ثمّ إنّ مهمّته هذه يسيرة مقارنة بالمجهود الجبّار الّذي يبذله طوال اليوم مع حرّ الشّمس فيستغلّها فرصة لأخذ قسط من الرّاحة. يجهّز إبريق الشّاي على ترنّمات هنديّة، يعبّئ التّرمس، ويكمل راحته في اللّغو بما زاد ونقص مع عامر، ويقدّم له ملخَّصا كاملا بما حصل في غيابه. ولا يقلق أبدا من الإفصاح له عن بعض الأخطاء؛ فإن غضب يسكب له شايه اللّذيذ قائلا: «ما في خوف بابا. أنا معلوم كيف سوّي ترتيب. أنت في مرتاح إن شاء الله». ويردف له موقفا مضحكا؛ ثمّ يسأله: «بابا انت في زعلان؟»، فيضحك هذا الأخير رادا: «الأمور طيبة». يسدي له الملاحظات، ويعطي تعليماته للعمّال ويكشّر عن أنيابه كي يأخذوا الأمر بمحمل الجدّ، ويستعجلوا في الإنهاء. ثمّ يسرع إلى أعلى قمّة بالسّعادة ليشاهد الغروب، وينعم بالهدوء، ويخطّط دون ضجيج، أو يسترجع ذكرياته دون إزعاج.

يتّجه إلى مرتفعات عقبة حمرير ويمكث هناك لفترة، يتأمّل شموخ الجبل. ما زال يحنّ إليه. بالرّغم من أنّه لم يعد هنالك سور يحرمه الذّهاب إليه ومرّت عشر سنوات على إزالة الشّبك؛ إلا أنّ مشاغل الحياة اليوميّة الرّوتينيّة حالت دون ذلك. في كلّ مرّة يجلس مع جبله يخبره بشوقه إليه،

يعتذر منه، يخبره بأسبابه الّتي تمنعه من وطأته، تشتدّ حسرته عندما يتذكّر الوعد الّذي قطعه عليه: «سيأتي يوم ويُهدم هذا الشّبك الّذي يطوّق المدينة بأكملها على امتداد البحر من عوقد غربا إلى الدّهاريز شرقا. لن يكون له وجود؛ وكأنّه لم يكن. حينئذ لن يكون للثوّار نشاط يُذكر؛ لأنّهم في ذلك اليوم لن تكون لثورتهم معنى. وسيتركوك بسلام ويعودون إلى أهاليهم وأراضيهم. في ذلك اليوم ستتّحد مع السّهل، وتبسط ذراعيك، تحضن أهلا سكنوا المدينة وحُرموا من الطّلوع إليك طيلة سنوات. سيأتي ذلك اليوم، وسيعمّرك الأهل والأحباب. حينئذ سآتيك مهلّلا، أخبرك بأحلى القصص عمّا طرأ علينا من خير وبركة. ووعد لك؛ سأبني لي بيتا عندك، لن أتركك مقفرا تبكي الوحدة في شموخ، سأهبك أولادا من إحدى بناتك». ومرّت الأعوام في عدوها تلاحق مستجدّات؛ ولم يتمكّن عامر من الإيفاء بوعده، ولم يتزوّج من عنده. وظلّ الحديث قائما بينه وبين جبله. يتساءل إذا ما كان مواساة أم فضفضة؟

كان الوقت في أفضل أزمنته، توافق مع بداية فصل الصّرب أفضل فصول صلالة؛ جوّ معتدل وشمس دافئة وغيوم تتلبّد قليلا وسرعان ما تنقشع تدريجيا في سلام. الأرض اكتست أحلى أبّهة خضراء بعد ارتواء مشبع طيلة فصل الخريف. افترش حصيره، وجهّز وسادته ليتوكّأ عليها ويتأمّل ما حوله من كلّ الزّوايا. وضع ترمسه على مرمى يده، وأخذ يسكب الشّاي الّذي أعدّه له خان؛ يرتشف ويصدر صوتا يوحي بتلذّذه. فكّر قليلا في موضوع

إدمانه لهذا الشّاي؛ ماذا لو انتهت أشغال البيت؟ هل يتّخذه خادما خاصًّا؟ هل سيوافق؟ سرح ببصره في الأفق، أحسّ بارتخاء عينيه، البساط الأخضر يمتع ناظريه ويجدّد نشاطهما. شدّت انتباهه كثرة الحمير ومزاحمتها لقطعان البقر والماعز؛ تسرح وترتعي طليقة، تبسّم قائلا: «دنيا يا دنيا. ههه.. سبحان الله؛ حتّى الحمير تحرّرت. عادت إلى مراتعها الأولى بين الوديان والهضاب بدون شغل ولا مشغلة. ههه.. لكن يا مسكينة يا لهذه الحريّة المهينة. أطلقوا سراحك لعدم حاجتهم إليك الآن؛ ظهر السّيكل (الدّراجة الهوائيّة) والموترسيكل والسّيّارة. ارتعي واهنئي بحريّة وهبها إيّاك القدر». ضحك بقوّة إلى أن استلقى بالكامل. سكت. أخذه اندفاع كتل السّحب الخفيفة تتفرّق وتجتمع ثمّ تبتعد من جديد، وكأنّها تؤدّي رقصة رشيقة أو تتسابق في رحب السّماء نحو البحر لتودّع الخريف، تتلاشى فوق أعماقه الشّاسعة مخلّفة صلالة بنورها ونوارسها. رأى في مخيّلته بحر العرب يستردّ زرقته المعهودة، رأى أمواجه ترتخي وتهدأ كما يهنأ هو وكلّ من حوله الآن.

شهق فزعا. أحسّ بدبيب حوافر حيوان بجانبه انتشله من تأمّلاته. لكن سرعان ما كتم نفسه، وقرّر أن لا يعيره اهتماما. حاول التّهدئة من روعه محدّثا نفسه: «كلّ ما يتحرّك حولي ذو حوافر». اشتدّ الرّفس، انقبض قلبه؛ لم تكن رفسات هذا الحافر عابرة كما هو المعهود من الإبل والمواشي، ليست سلسة على الأرض؛ بل تطرقها طرقا.

لفت ذلك انتباهه، أدار وجهه ناحية مصدر الصوت. تفاجأ بحمار يحدّق فيه بطريقة مروّعة. ألقى نظرة على باقي القطيع؛ فإذا به غادر بعيدًا. استغرب من سلكه هذا المسار بعيدًا عن أصحابه. حدّثه حدس مخيف من أعماق ما توارثه من أساطير الجنّ والشّياطين، تخافق على أثره قلبه: «لماذا يتوقّف هذا الحمار عند رأسي؟ أتراه حمارا؟ لو كان كذلك، لمَ تخلَّف عن باقي القطيع؟ ماذا يريد منّي؟ بسم الله الرّحمن الرّحيم. لمَ يحدّق بي هكذا؟ ما الّذي يريده منّي؟ أعوذ بالله. وكأنّه ليس مجرّد بهيمة. يحدّق بي ويفكّر كإنسان يخطّط لأمر ما. يا ستّار». حاول نهره؛ إلا أنّ الحمار لم يحرّك ساكنا؛ ظلّ على موقفه؛ لم يتزحزح، واستمرّ في التّحديق الغريب. انتفض واقفا بفزع أكبر، لوّحه بعصاه ناهرا كي يتراجع عن حصيرته، ويبتعد عنه أو يغادره. كشّر عن أسنانه صارخا: «أعوذ بالله منك، اذهب. هِششش. أششش..». غادر أخيرا لكن مع كلّ خطوة يخطوها إلى الأمام يلتفت إلى الخلف محدّقا بعامر الّذي انفجر ضاحكا من غرابة الموقف ما إن اطمأنّ لابتعاده. شغل تصرّفه تفكيره؛ هو يعرف الكثير عن الحمير، تعامل معها في صباه، ومثّلت رعايتها جزءا من حياته، يعرف الكثير عن سلوكها وطبائعها، ومثل هذا الفعل جديد عليه، بدا وكأنّه يريد منه شيئا، أو قد يكون يريد أن يفتك به، أو يتفحّصه لأمر يجول بباله. لكنّ البهائم لا عقل لها، كلّ شيء مرتبط بالغريزة والحاسّة، ترى ما الّذي يريده منه؟ تصرّفه يشبه العاقلين

الّذين يحاولون التّعرّف على أحدهم، أو أولئك الّذين يتربّصون بأحدهم لاقتصاص ثأر أو أمر ما. التبس عليه الأمر، وجزم بأنّه ملبوس.

أسرع إلى حصيرته، لملمها، أدار مفتاح سيّارته، وقصد مسجد الشّعبيّات بالسّعادة، صلّى المغرب جماعة، قرأ الأذكار والرّقية الشّرعيّة، تحصّن. ورغم كلّ ذلك، ظلّ منظر الحمار راسخا في مخيّلته. قبع يفكّر ويحلّل؛ إلى أن وصل به التّفكير إلى البطران. قفز إلى مخيّلته فجأة بعد طول غياب. أحضرته ذاكرته من تلافيف الدّماغ الغابرة؛ فضحك واستبشر قائلا: «أيُعقل؟». لوهلة نسي خوفه وقلقه. كان أوّل كنز حصل عليه، وأوّل هديّة معتبرة من أبيه، تباهى به أيّاما ولياليّ أمام أصحابه. تذكّر حين اصطحبه والده إلى مزرعة بالقرض، وكيف انفتح له باب الحظّ فجأة ما إن رآه. دلفا بانشراح كبير. تذكّر كلّ التّفاصيل الصّغيرة والكبيرة وكأنّه يشاهد ما دار حينئذ على ركح أمام عينيه الآن. وجدا العمّ مسعود صاحب المزرعة قد نزل من أعلى نخلة النّارجيل، وتهمّم بنزع اللّحاء الخارجي للثّمر. وما إن لمحهما مقبلان أسرع إليهما بحفاوة قائلا ببشاشته المعتادة: «يا حيّ وسهلا. تعالا برّدا بطنيكما بماء المشلاي المكنون. لا أحدّثكما عن طعم كزّاب هذه النّخلة. لا أعتقد أنّكما ذقتما كلذّته وحلاوته من قبل. يا ألف مرحبا». ناولهما اثنتين منهما ثمّ أردف: «ما رأيكما؟ أسمّيها «قريبة العسل»، أخصّص كزّابها لأهل بيتي وأهدي منها للأقرباء والأحبّاء فقط. أبدًا لا أبيع منها».

لم يفقها ما حاجته لإعلامهما بذلك؛ فهما لم يأتيا للتّفاوض على أمر هذه النّخلة. إلا أنّهما استغلّا الموقف فقد لا يتسنّى لهما ثانية تذوّقها. فكان أبو عامر في كلّ مرّة يريد المزيد يهزّ رأسه قائلا: «ما شاء الله. إي والله صدقت يا مسعود. لم أذق في لذّته من قبل. طعم هذا الكزّاب غير. تبارك الرّحمن عسل! كما سمّيتها بالضّبط». وبعد أن ارتوى قال: «الحمد لله، جزاك الله خيرا. لكن لمَ لا تكثر من فسلاتها؟»، وكأنّه خشي أن يقترح عليه ذلك قبل أن يأخذ شبعه فيحرمه منها. فهمه وردّ عليه ضاحكا: «هذا ما سيحصل إن شاء الله. فسلت ثمر عدّة عناقيد من النّخلة، وسأخصّص أماكن لغرسها. أبشر يا أخي سأهديك بعضا منها». شكره، وأردف قائلا: «زيادة الخير خيرات. أتينا لأخذ ما اتّفقنا عليه، وها أنا سأعود بحمار وكنز مستساغ شرابه». تذكّر عامر كيف استغرب حينئذ من قول حمار، وحزّها في نفسه ظانا بأنّ أباه خصّه بالنّعت؛ حتّى كادت كرة العبرات أن تخنقه. وصدّق أكثر بأنّه لقّبه بذلك خصوصا عندما ربّت العمّ مسعود عليه ضاحكا. انفرجت أساريره قائلا: «الحمدلله رأيته مربوطا. عندما اصطحبنا العمّ إلى النّاحية الخلفيّة للمزرعة كنتُ قد كرهتُ لوهلة أبي، ووددتُ لو تنشقّ الأرض وتبتلعني، لم أحبّ قطّ أن يستصغرني وأن يشبّهني به، خشيتُ أن يلقّبوني بالحمار، تذكّرتُ ابن عمّي الّذي لقّبوه بالبطريق، وزميلي الّذي ينعتونه بالدّب. الحمدل له رأيته مربوطا إلى جذع النّخلة. الحمد لله كان سوء فهم منّي. ههه..». التفت يمنة ويسرة، وجد مصلّيين بالقرب منه وقد ركّزا معه

وأخذا بالابتسام، لأنّهما هنديّان. حمد الله أنّهما لم يفقها ما يقول وعاتب نفسه قائلا: «ما بالك؟ اضبط نفسك، سينعتونك بالجنون يا حمار». ضحك من جديد مردّدا «حمار»، ثمّ حمحم وتنحنح قليلا، وعاد في استباق زمنيّ إلى المزرعة.

عندما اصطحبهما العمّ مسعود إلى النّاحية الخلفيّة للمزرعة؛ كان يجرّ ساقيه جرا. كره للحظة مجيئه، غرق في التّفكير كيف السّبيل إلى الفرار والاعتذار عن هذه الزّيارة الّتي غدت الأثقل على قلبه وجسده، وازداد إحساسه بالنّفور حين علم أنّه أخذهما ليريهما حمارا صغيرا ذا لون أشهب جميل، ما يزال غارقا في همومه عاكفا رأسه بين كتفيه ملتوٍ على صدره طارقا بصره في الأرض كالنّعامة، عندما خاطب العمّ مسعود أباه: «هذا هو الحمار الّذي كلّمتك عنه. لن تندم أبدًا إذا أخذته يا صديقي». ما إن سمع ذلك حتّى انفرجت أساريره، وشعر بالارتياح، وانقشعت الغمّة من على سحنة كرامته، رفع رأسه وتقدّم بخيلاء الجمل يمسح على جلده الأملس اللّامع بحنيّة وسعادة وراحة؛ بينما أكمل العمّ مسعود حديثه بانشراح: «انظر، قد أعجبا ببعضهما البعض. ألم أقل لك سيرتاح معه. معي والدته منذ أعوام وقد أنجبت اثنين قبله. بعتهما لأحد الجبّاليّين وإلى الآن يثني عليهما. شبه أمّهما؛ لم تنل الدّبرة من ظهورهما. كما تعلم؛ الدّبرة تصيب عادة أغلب الحمير من كثرة الحمولات. كما أنّ نسل بهيمتي تميّز بسرعة المشي، وقوّة التّحمّل؛ شبه الأمّ الّتي عندي بالضّبط. خذه، لن تندم أبدا».

سمع عامر الحوار آنذاك؛ لكنّه لم يستوعب فحوى ما يدور بينهما من حديث، وانشغل يلاعبه ويطعمه ممّا تناثر حوله من العلف، وانسجم بدوره معه؛ فكان يعطيه رأسه ليربّت عليه، أو ينحني إلى الأرض وكأنّه يقول له: «هأنذا، اصعد. سأحملك إلى كلّ مكان». ولولا خجله من صاحب المزرعة لامتطاه دون تردّد. فجأة نال مبتغاه، سأله والده: «أتريد هذا الحمار الجميل يا عامر؟». تبادل نظرة طويلة معه مردّدا بداخله: «أيّ يوم حظّ هذا؟ أنا لستُ الحمار المقصود، وسيصبح لي حمارٌ». ضحك؛ ثمّ أسرع إلى أبيه مستبشرا، وانهال على يده يقبّلها قائلا: «سأسمّيه.. البطران». تذكّر كيف تردّدت قهقهتهما طيلة دقائق طويلة انهزّت لها حشائش المزرعة ونخيلها، ونهق على أثرها حماره، استغربا من اللّقب الّذي أطلقه عليه.

لم يأبه لسخريّتهما، قفز على ظهره ليحضنه وليرى العالم من على ظهره. شهق العمّ مسعود ناهرا: «انتبه يا ولد. اصحَ. انزل يا ولدي. لا تركبه. لم أدرّبه على ذلك بعد. يجب أن يدرّب على ذلك ويدجّنه أبوك أوّلا». لكنّ البطران اقترب منه، واحدودب يحثّه على فعل ما أقدم عليه فصعد بأمان. ضحكا من جديد على الانسجام المبالغ فيه بالنّسبة لهما. اندهش عندما دفع والده ثلاثين ريال فرنص؛ ريال ماري تريزا الفضّي، كان المبلغ يكفي لشراء بقرتين حلوبتين. علم أنّه اشتراه له جزاء لما وجده فيه من كدّ وجدّ؛ فلقد أثبت له أنّه أصبح رجلا يعوّل عليه، وبإمكانه إدارة أعمالهم بالمزرعة والسّوق.

لم ينم تلك اللّيلة منتظرا انفراج الصّباح كي يقصد شاطئ بحر الحافّة مع والده ويدرّبا البطران كما اتّفقا. تذكّر كيف حمّلاه أكياس رمل ثقيلة تهتك العاتق، وتذكّر أيضا كيف كره فعلهما ذلك؛ فلقد جعلاه يشقّ أكوام الرّمال ذهابا وإيابا بكلّ تلك الحمولة؛ إلا أنّ أباه خشّن صوته قائلا: «كن رجلا. العاطفة ليست إلا للحريم، خلق لهذا. اعطف عليه لكن لا تتّخذه رفيقا. الحمير ليست كالكلاب». أعاد تلك الكرّة مرّات عديدة إلى أن دجّنه ولم يكتف بذلك، بل غصب عليه ركوبه وقيادته إلى البيت من أعلى.

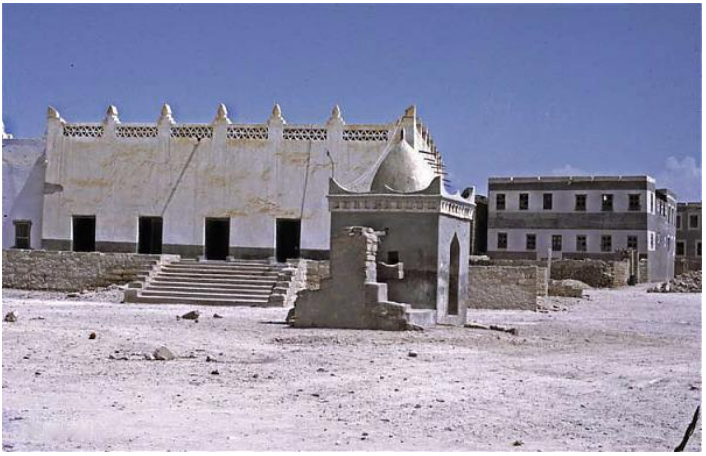

رغم محاولات الأب بأن يجعله مجرّد وسيلة نقل وعمل فإنّ عامر اتّخذه رفيق درب وحياة. كان يجلس إليه مطوّلا يحادثه بما لا يقدر أن يخبر به أحدا. كلّمه عن بنت الجبل، وعن انتفاضاته ضدّ الحكومة، وعن مخطّطاته لتجاوز الشّبك، أخبره أشياء كبيرة ودقيقة لو علمها غيره لحكموا عليه بالنّفي أو الإعدام أو السّجن ولاضطرّ إلى الهروب، غير أنّه كان بئر

أسراره، يصغي إليه بعناية دون نهيق يذكر، وعندما يكره فعلا يفرس برأسه الأرض أو يقوم ويذهب بعيدا عنه، فيعلم أنّه يعارضه الرّأي. وعندما يحزن، يرى في عينيه دمعة تتلألأ وحنّيّة مستساغة، يثور ويتقلّب ويحاول مداعبته. لا يدري عامر لمَ يقولون إنّ الغباء من صفة الحمير ويعلم جيّدا أنّ الكلّ يجهل مالها من خصال، فمن قال بأنّ الحمير ليست كالكلاب؟ يؤمن حقّ الإيمان بأنّ الحيوان إذا ألف وفى وضحّى بنفسه لأجل صاحبه. كان البطران خير دليل على ذلك؛ فلقد أصبح طيعا له، يستجيب لكلّ ما يدرّب عليه، مرّة أنقذه من حنش تحت التّبن، رفسه بحوافره، دقّه بكلّ غلّ. قطّب عندما تذكّر خبط الدّقّ، وتذكّر الحمار الشّيطان تحت رأسه، خفق قلبه من جديد، أتراه كان يريد أن يرفسه؟ ارتاح عندما وجد نفسه بالمسجد. عاد إلى البطران الجميل الأمين وأيّامه الخوالي. تذكّر غيرة أصحابه منه. كان لا يذهب إل المزرعة أو سوق الماركيت أو سوق الحصن إلا به. لا يفارقه إلا عندما يدخل لجلب مراده من الأرز والبر والسّكّر وغيرها من الحاجيات، يربطه خارج أسوار السّوق، ويجلب حمولته في الأكياس القماشيّة الكبيرة. وأحيانا كثيرة يتفاجأ بعدم وجوده في مربطه؛ فلقد كان حرّاس القصر يشنّون حملة بين الفينة والأخرى لطرد الحمير حفاظا على لباقة المكان ونظافته وحضارته، كما يشنّون الحملات على الموتورسيكلات والسّيّارات الآن ويخالفون أصحابها عند وجودها بالمكان غير المخصّص لها. ضحك عندما تذكّر ذلك. لكنّه لم يكن يقلق عند حصول ذلك. حين يخطو بعض

الأقدام يأتيه البطران ركضا من أحد الاتّجاهات، وإن حصل واضطرّ للعودة وحيدا محمّلا بأسفاره لا يقلق من أمر توهانه؛ فهو يعرف طريق العودة جيّدا. إن وجد الباب الخارجي مغلقا يظلّ يقرعه برأسه إلى أن يفتح له. يدلف، فإن لم يجد عامر في الاستقبال يرفض الدّخول إلى حظيرته، ويظلّ حول الدّار بالخارج إلى ان يصل صاحبه. تنهّد عامر قائلا بصوت عال: «من قال إنّ الحمير غبيّة هو حمار». ضحك بقوّة، وشاركه في ضحكته الهنديّان من جديد. يصرّان على اغتصاب خلوته، ويتطفّلان عنوة على ذكرياته، ويشاركانه غصبا ابتساماته المسروقة من ماضيه الغابر. هما لا يعلمان ما يجوب خاطره، ودّ لو يخبرهما عن الحمار الشّيطان ونظراته المبهمة، أحبّ أن يشاركاه خوفه أيضا؛ لكنّه عدل عن ذلك، اكتفى بلملمة فمه، صورة البطران تسيطر على عقله. توكّأ على الحائط وعاد إليه من جديد. عاتب نفسه: «لمَ تخلّيتُ عنه؟ أين هو الآن يا ترى؟». تذكّر أوّل مبلغ ادّخره بعيدا عن المصروف الّذي يتفضّل به الوالد عليه. تذكّر دور البطران في تجميعه؛ فلقد تحوّل من رفيق إلى مصدر دخل وريع سنوي موسمي. لمّا علم الجميع بقوّته وذكائه توافدوا لاستئجاره؛ خصوصا صيّادي السّمك بالحافّة. عند دخول موسم الخريف يهيج البحر على غير العادة؛ تشتدّ تيّاراته، يكثر زبده، يتقدّم ويرتفع فيستحيل ركوبه، ويضطرّون لنقل قواربهم الصّغيرة «الهوري» إلى ريسوت والصّيد هناك. فلم يجدوا أفضل من البطران في سرعة الحركة وقدرة التّحمّل لنقل أسماكهم باكرا إلى

الماركيت. دفعوا ليوميّته ربع ريال فرنص. لم يتقاعس يوما أو يمرض أو يتخاذل عن أداء مهمّته، يكدّ بالصّباح وبمجرّد أن يراه يشاكسه ليلاعبه. أهداه نهاية مواسم عديدة مبلغا مهما من الرّيالات تفوق احتياجاته البسيطة الّتي يحلم بها أبناء سنّه، فما كان لعامر إلا أن يدّخر ما جناه من ورائه. صار ذا مال وسند بفضله. تنهّد عندما تذكّر ذلك، وقال بحسرة: «آه منك يا ابن آدم». سكت قليلا، التفت يتفقّد الهنديّين، لم يجدهما فقد غادرا المكان، تنهّد من جديد؛ ثمّ أردف بغلّ: «لا يوجد حيوانيّة ونكران للجميل أكثر من الإنسان. كيف فرّطتُ فيه بعد أن فعل من أجلي كلّ ذلك؟! لقد كان السّبب في تجميع مبلغ السّيكل. وإن اشتريتُ درّاجة هوائيّة، أما كان ينفع أن أحتفظ ببطراني؟ آه منّي آه. يا ترى أين هو

الآن؟ أيعقل أنّه قد مات؟ لا أتوقّع يقولون بأنّ الحمير تعيش قرابة ربع قرن. هيّا يا عامر تذكّر متى كان ذلك؟».

أطرق يفكّر، ويعصف ذاكرته عصفا إلى أن تصبّب عليه العرق. عاد إلى الشّهر السّادس بعد قيام النّهضة المباركة؛ حين أخذ كلّ شيء في التّحوّل والتّطوّر، وبدت مظاهر التّمدّن، وأصبح المحظور مباحا، بدّله في ذلك الوقت بحلم كلّ الشّباب الّذين في عمره، وأصبح لديه سيكل بعد أن كان ذلك مقتصرا على موظّفي الحكومة وبعض التّجّار أصحاب الواسطات الكبرى. طرح مصرّه على جانب، فرك شعره قائلا: «نحن الآن في عام 1982؛ إذا...». حرّك أصابعه، وبدأ بالعدّ تنازليا، وسرعان ما طرقعهم مستبشرا: «هناك أمل إذن. قد يكون على قيد الحياة». تهمّم من جديد، وأخذ يقضم أظافره؛ تارة يفكّر وتارة يلوم حاله. عضّ على شفتيه ممتعضا: «عاملته بحيوانيّة. أهملته كما تهمل الخردة. كنتُ صاحب مصلحة بينما كان كريما وفيا. سمحتُ لهم بطرده؛ بل ساعدتهم في ذلك».

تذكّر كيف استغنى عنه؛ في البداية تركه بالسّاعات في الحظيرة مع باقي الحيوانات دون أن يلتفت له، كان يستعمل الدّرّاجة في نقل الحمولات الكبيرة، ووجد هذا الأمر أنجع وأسرع، وعند عودته لا يزوره إلا صدفة إذا ما أراد اللّعب في الخلف بدرّاجته، حينئذ كان يطالعه بنظرة ثابتة مبهمة مطوّلة، نظرة أخافته وأزعجته؛ حتّى تخلّى عن مراودة الحوش الخلفيّ. وبعد فترة علم الجميع بأنّ القانون الّذي يحجر البناء قد ألغي وصار حقّا

لكلّ مواطن؛ فقرّر والده توسيع منزلهم بإضافة بعض الغرف مكان الحظيرة، وهكذا تمّ نقل جميع الحيوانات من أبقار وأغنام والبطران إلى المزرعة. تذكّر نظرته إليه عندما تركه هناك، أخافته أيضا. لم يبتعد كثيرا عندما تعثّر بالدّرّاجة، وانتبه غلى أنّه يتبعه بسكوت عائدا معه، غضب حينها، واستشاط ينهره، تراجع وقتئذ ومشى نفس مشية الحمار الشّيطان الّذي التقاه العصر، التفت إليه مرّات عدّة باضطراب، وصوّبه بنفس حدّة البصر.

ابتلع ريقه محتارا: «أيعقل؟ أيجوز؟ ألا يا ليت». قطّب عينيه؛ ثمّ استرجع كيف طردوه بعنف عندما تردّد على البيت. لقى صدا صارما لأيّام، ولأسابيع إلى أن تباعدت فترات رجوعه، ورويدا رويدا غاب تماما ولم يظهر بأيّ مكان، وقاطع المزرعة أيضا وكلّ ثنايا المدينة. تمتم قائلا: «من المستحيل أن يكون هو. لقد غبر من سنين؛ فكيف له أن يعقلني؟ من المؤكّد أنّه نسيني، واستبدلني كما استبدلته بالسّيكل؛ ثمّ الموترسيكل؛ فالسّيّارة. ما بالي أنبش في الماضي؟ تلك سنّة الله، دوام الحال من المحال».

فجأة أتى أحد الهنديّين يحثّ قدمه ويسترجع أنفاسه: «بابا تعال شوف. هذا.. هذا..». انتفض مسرعا يستكشف الأمر. وجد نفس الحمار ينطح صديقه، وما إن رآه توقّف عن فعل ذلك. تاه في حيرة، يحاول التماس الأسباب الّتي تمكّنه من اللّحاق به، تسارعت دقّات قلبه إلى أن تذكّر أنّه كان يقود السّيّارة على مهل وهو يردّد القرآن. قال الهندي: «بابا أنت نفر واجد زين. بليز ما في زعل. الله في حب أنت. هو في نفر مسكين، سوّي

مسامحة مشان هو. هو فكّر يشيل بوك مال أنت، يجي هذا يضرب هو. سوي مسامحة مشان هو». استغرب عامر ممّا سمعه. عاود ما قاله في ذهنه وكأنّه يترجم الكلام بلهجته علّه يفهم: «بالفعل ترك ماله بطريقة مكشوفة في السّيّارة، وهذا الهندي حاول سرقته، لولا أن أتى الحمار وأنقذني. الغبيّان كانا يشاركانني الضّحك كي يتأكّدا من شرودي. آه من هؤلاء الهنود. لكن كيف علم الحمار بصنيعهما؟». تذكّر البطران عندما أنقذه من الحنش، اقترب منه على عجل وقد هرب السّارقان؛ لكن لم يهتمّ لأمرهما، تفرّس ملامحه قائلا: «نفس اللّون الأشهب الجميل. أيعقل؟ البطران؟». فحصه، حاول تذكّر أيّ أمارة بجسده؛ لكنّه لم يفلح. أذّن العشاء، استعاذ بالله من الشّيطان الرّجيم، استغفر وحمد، وأسرع للصّلاة مردّدا: «وجوب صلاة ركعتين لله الّذي ردّ إليّ البطران وأخرجني من حالة الذّعر الّتي تلبّستني. الحمد لله». عندما وصل إلى باب المسجد، التفت ليطمئنّ على حماره، لم يجده؛ اختفى في بعض خطوات كأنّه لم يكن.

نماذج من المباني والمساجد القديمة في محافظة ظفار

فهرس المحتويات

الرّعاة الصّغار 5
الهاربون والعائدون 41
كوريا موريا 81
الهروب الصعب 97
البطران 123